سمر يزبك

جبل الزنابق

" حكي منامات "

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

دار الآداب

جبل الزنابق

"حكي منامات"

سمر يزبك

جبل الزنابق

"حكي منامات"

دار الآداب

إلى الجميلة النائمة دعد حداد

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

في قطار طاغور

الثوب قمحية، تمر خطفاً مثل لون سهول الفرات صيفاً. أجلس في القطار السريع الذي يصفر بشدة.

كنت أحمل فاصوليا، عريضة على مقعد، في مقصورة ذات جدران خشبية. أحمل بيدي أوراقاً قديمة.

عيناي واسعتان مدورتان مثل كرة قدم أخي الخضراء. فمي خط أسود ناعم فوق بياض الفاصوليا. تدخل امرأة. تنظر إلي بذهول. تصرخ: حبة فاصوليا، بدون خضراوين؟!

أتأرجح على مقعد فارغ، أحاول التشبث بالمقعد. لا أستطيع. لم تنبت لي ذراعان، ولا رجلان كباقي البشر. أتأرجح مع سمنتي. فحبة الفاصوليا التي كنتها، كانت من نوع عريض وطويل، تسميها أمي: فاصوليا لبنانية. أمسكت السيدة بي، ووضعتني جانباً. همهمت: المسكينة.. المسكينة.

كانت سيدة غريبة، لم أعرف من هي، ولكني فيما بعد، سأكتشف أنها كانت تلك المرأة التي تصرخ في شوارع باريس، داخل "البؤساء" رواية فيكتور هيغو: الدم.. الدم.

رأيتها بعد ذلك، على شاشة التلفزيون، لكنها في المنام كانت

بوجنتين ناتئتين، وأنف حاد إلى درجة مخيفة. سألتني: أين أنت ذاهبة يا صغيرة؟

- إلى الهند.

قلت وأغمضت عينيّ.

فجأة، طرت في فضاء المقصورة، والسيدة تلاحقني بأصابعها. على النافذة ألمح دخاناً كثيفاً فأصرخ. تطلب السيدة مني الهدوء، وتخبرني أنه دخان القطار. تمسكني بأصابعها. أقول لها:

- أنا حبة الفاصولياء التي ستكبر، وتصل إلى الغيوم. تضحك:

- أما سمعت بقصة سام والفاصولياء؟ تضحك أكثر وتقول:

- إلى أين أنت ذاهبة أيتها الصغيرة؟

- إلى الهند.

- إلى الهند؟ هل لك صديقات هناك؟ حبات فاصولياء صغيرات. تضحك بسخرية.

- أنا ذاهبة إلى طاغور. هو دعاني.

تنبت لي رجلان، فأقف، وأسلمّها أوراقاً مهترئة:

- هذه دعوته، وهذا خطه، وهذه أوراقي. أنا أكتب الشعر.

تنظر إلى الأوراق، تهمهم باستغراب:

- هل تسمحين لي بالجلوس؟

تجلس، تتغير ملامح وجهها، تنكسر خطوط خديها، وتتحول إلى لوحة تكعيبية. يومها لم أعرف ما هو الرسم التكعيبي، لكنها كانت تشبه في انكسارات وجهها، لوحات بيكاسو. خطوط غريبة غيرت ملامح وجهها، وبدأت تشبه أمي. قلت لنفسي: هذه خالتي التي لا أعرفها. ضحكتْ. لكن خطوطها المنكسرة زادت حدة.

- يجب أن تعودي إلى بيتك يا صغيرة، أمك قلقة.

- أنت لا تصدقين. طاغور بانتظاري، وأنا لست صغيرة. انظري.

أتقدم منها. تلمع نتوءين صغيرين. يصير لحبة الفاصولياء نهدان. تضحك. تصفق بيديها، فينفتح الباب، يتعالى صفير حاد في أذني. ألمح وجه طاغور يطير في الهواء، وهو يرتدي درع سلحفاة، وجناحي كناري. يبتعد الوجه. تختفي النوافذ، ويظل وجه أمي العابس.

انزلي عن حرف الألف

أمام الفراندا المطلة على الفرات، كان طاغور يطير في الهواء. لحيته الطويلة البيضاء تتماوج مع الريح.

الفرات يتجمع في بحيرة أمام قلعة جعبر. أمي تحضر لنا مربى الباذنجان. ورائحة سكر وحموضة. أخرج إلى الفراندا، هرباً من الرائحة الواخزة. أشجار الكينا تمنع رؤية قلعة جعبر أمامي، فأقف فوق الدرابزين الحديدي، على رؤوس أصابعي، أفتح ذراعي للريح. يقترب مني:

ـ هذا أنت؟

يطلب مني الصمت. التفت إلى الوراء، وأقول:

ـ إنها مشغولة بالمربى!

يضحك ويبتعد. يطير حول البحيرة. ألمع ثوبه الأبيض الشفاف، يتطاير مثل جنيات القصص. يجرُّ لحيته وراءه، ويحمل في يده، عصا ذات لون فيروزي، تتحرك حولها النجوم. نجوم ملونة. يخرج من أضلعي جناحان كبيران يصفقان. أتشبث بالدرابزين، أخاف أن أصرخ. يطلب مني الصمت، ويشير إلى البيت. أسمع صوت أمي تصرخ باسمي، فأفلت يدي.

تنتشر أبيات شعر على صفحة السماء. ألحق بالحروف. كانت حروفاً بيضاء، تتشكل مثل ألعاب طيارة نفاثة في الهواء. تتشكل ولا

تختفي، وتتحول إلى غيوم. يجلس فوق حرف الميم، وأمسك بالألف، ثم اعتلي قمته.

صار الفرات بعيداً. وزعيق أمي يجعلني أرتجف: بنت قليلة التربية. انزلي عن حرف الألف.

سيدة التفاصيل

دعد حداد، الشاعرة التي ماتت وحدة وسكراً، في غرفة مجهولة، تنظر إلى الأفق الطيني، تجلس قربي فوق حقيبة. تتحدث وأسمع صوتها يقول: **وأنا سوداء كالبنفسج... من الحزن الدفين.**

كانت دعد تعاتبني:

ـ هل الألوان موجودة في الأحلام ؟ لماذا أقول إن الحقيبة بنية؟

تهمس ببحة:

ـ صحيح... إنك مجنونة!

أنظر إلى الأرض الموحلة التي نجلس عليها. تلتصق قربي، والحقيبة تغوص في الطين. قالت:

ـ أين نحن؟

ـ نحن في مزارع القطن في أمريكا. هل تذكرين مَنْ كتب عن معاناة مزارعي القطن في أمريكا ؟

تصمت. تظهر امرأة سوداء من البعيد، وهي تلملم رؤوساً سوداء، بدت أشبه بفواصل أو نقاط أحرف. اتضح فيما بعد، أنها رؤوس أطفال زنوج. قلت لها:

ـ هذه توني موريسون. ضحكت وقالت:

- كسرة خبز تكفيني أيتها العيون المخملية. قلت:

- نحن داخل النص. أنا وأنت داخل نص. من هو الذي قال: الكتابة مكان للحياة؟ جوزيف كونراد ؟

صمتت، وصارت حزينة. قلت:

- توني موريسون، سيدة التفاصيل. وهي الآن تكنس نصها. انظري الفواصل، كيف تجمعها ؟ نظرت إلي باستخفاف:

- مجنونة. أريد بطحة عرق. أقول:

- لو أن لون العرق ليس أبيض، فماذا يمكن أن يكون؟

ترد بحزن:

- أبيض طبعاً!

حرف النون

أرتطم بجدار الانحناء المحيط بي. كنت النقطة العائمة في فراغ النون.

حرف نون عملاق، نقطته أرجوحة. أزيح عمامة بيضاء ناصعة عن رأسي، أبدأ في فردها، ولا تنتهي العمامة. يهتز حرف النون، ويرتفع في الفضاء. حرف وحيد في فضاء معلق من نقطة. أتحول إلى خطاف الحرف. يتشبث بي، وأنا ما زلت أفرد العمامة، تتقافز الحروف من حولي بلا نقاط. صوت يقول:

- النقاط مُحدَثة في لغتنا.

- الكلام محدث أيضاً. الصمت لغة، ولا معنى لمفردات بلا سياق.

يرتج حرف النون.

تقف الحروف على مدرج الجامعة. يكتظ بهو الجامعة بها. وأنا داخل النون، أنظر إلى أصدقائي في الجامعة. كانوا حروفاً عربية وسريانية. أقف وسط النون، أتسلق جداره، ثم أتكىء على حرفه. أسمعهم يصرخون: هذا في السياق.

أقول:

- لا.. المفردات ضمن السياق وخارجه.

يضحكون، وتتقافز الأحرف، بعضُها فوق بعضٍ، حتى تصل جدار النون المنحني الذي أقف عليه. تمسك بي، وتخطفني، تبدأ النون بالصراخ:

- أعيدوا لي نقطتي، فأنا أصل الأشياء.

يهتفون بصوت واحد:

- لا تقلقي. سنعيدها. تحتاج لتأديب، من رئيس القسم في الجامعة.

أقول:

- سوف أشرح للأستاذ الجرجاني، نظريتي في السياق.

تنقلب النون على قفاها من الضحك. وكذلك الأحرف، فأحمر خجلاً، والجميع يصيحون:

- صرعتنا بالجرجاني! اطلعي بموال جديد، أو ارجعي لحرف النون، قبل أن يصير طنجرة بلا غطاء!

قفزت إلى حرف النون، وصرخت:

- الجرجاني أهم من رولان بارت الثرثار.

يهمس حرف غريب الشكل. كان حرف اللام السرياني:

- المجنونة...! كلّ فترة تُغرم بأحد الأموات

سمكة بعيون مفتوحة على الموت

أقول لنفسي في الحلم: لم أزل داخل حكاية حورية البحر، ممددة على الشاطئ، بلا وجه بشري. سمكة بشعر أشقر وعينين مفتوحتين على الموت. عيون مدورة تحمل لون عيني. المشهد أكثر من غائم. أفق بحري مستقيم مثل بحر الحكاية المرسوم بألوان باهتة، وخطوط مستقيمة. تنزل خصلات شعر على حراشف السمكة. لماذا لم أكن الحورية في البحر؟ النصف البشري، أين ضاع. أسأل نفسي في الحلم. يخرج صوت أمي:

ـ انزلي عن التخيتة. ستختنقين، أما شبعت قصصاً؟

ألمح رجلين صغيرتين، تنزلان السلم، وتندسان تحت اللحاف. أصير تحت اللحاف سمكة، وتمتلئ الملاءات بمياه البحر. أقف على طولي، أرى نفسي، سمكة بحراشف فضية. أمشي على ذيلي، وأهز زعانفي، وأنا ألمُّ شعري عن وجهي. أمشي على رمل بارد. أكره البرد، أتكتك. الزبد يلامس الذيل الماشي على شاطئ. يتحرك فم السمكة. وفجأة، تخرج ذراعي الصغيرة. هذه أصابعي، أعرفها! طويلة ونحيلة وبيضاء، وترتجف. ألمس حراشفي. كانت حادة مثل حواف سكين. أستغرب أين ضاع الأمير، وأقرر ألاّ أتحول إلى زبد أبيض، من أجل أمير غبي، لا يتعرف على لون عيني؟ ألم أنقذه من الغرق؟

لا ألمح بيوتاً أو قصوراً. لا يخرج أمير من الأفق الرملي، ولا شيء في الأفق البحري، سوى القتامة. سأعاقب عرافة البحار، أهمس لنفسي، وأحاول تلمس صدري: لم تفِ بوعدها، وتحولني إلى إنسية، ولن يجرؤ أمير على الاقتراب مني.

يخرج صوتي من مكان ما. ربما من بطني. شعرت به يخرج من أمعائي. ربما هذا هو السبب المنطقي الوحيد الذي يجعل الحكاية تنتهي هنا. الأمير يتزوج من امرأة أخرى، لأنني بقيت سمكة.

يتوقف الصوت.

أرى شاطئاً رملياً بلا نهاية، وسمكة مرمية على الشاطئ. اسمع صوت تنفسها. كان صدري يعلو ويهبط. السمكة ميتة، من حولها سرطانات البحر. الزبد يلعب بها، ولا يصل رأسها. ابتلعُ كميات كبيرة من الماء. لم أكن أنا هناك، لكنني كنت السمكة الميتة. أعرف ذلك في أعماق الحلم، وأنا اشرب مياها مالحة.

قاعة سينما رملية

ساعة رملية كبيرة.

الساعة هي العالم كله. ذرات الرمل تنزلق. البشر ينزلقون معها، يتدافعون بسرعة، يختنقون بالرمل. ينقلب العالم رأسا على عقب. أقول لأمي:

- فيلم السينما حزين. لماذا قتلوا الرجال على الحائط؟

نمشي على جانب الفرات. النهر ينزلق معنا في الساعة الرملية. الأشجار، البحيرة التي صنعها السد، الأبنية... كل شيء ينزلق، حتى السيارات والأعمدة الكهربائية في الشوارع، الأرصفة، الغيوم، حتى السماء. كل شيء يتحول إلى معجون ألعاب. وبالكاد أسمع صوت أمي، وهي تختفي بين الرمال، وتفلت يدي:

- هذا كفر قاسم.

أسمع صوتي:

- أمي مجنونة. أول مرة تأخذني إلى السينما، تجعلني أرى العسكر والقتل في كفر قاسم.

تخرج أمي من بين الرمال:

- يا قليلة الأدب.

أرى الرجال الذين قتلوا في الفيلم، يخرجون من الرمال، يمدون أياديهم إلي. يخرج الإسرائيليون وراءهم. أختبئ بذيل فستان أمي. أسمع أصوات القتلى يصرخون. العالم ينقلب مرة أخرى. الفرات يغرق في الرمل، ونحن ننقلب معه. أمي تضيع مني، أرى قطعة قماش فستانها في يدي. أبكي بصوت مسموع، وتغرق الساعة الرملية في دمعي. أبكي أكثر، فيتحول الرمل إلى طين، ونغوص في المستنقع. كانت حبات دموعي بأحجام تفوق حجمي، أضعاف المرات. تنزل دمعة، فأسقط من ثقلها، أقوم، ثم تسقط أخرى. اسمع أصوات كفر قاسم تأتي من بعيد، خارج الساعة الرملية الضخمة.

أصوات زاعقة، تزحف حول الساعة الرملية. أسمع صوتها وأراها من بعيد، شاشة سينمائية كبيرة تهرب من شيء ما. الشاشة شعرها منكوش بالأضواء، وأذرعها أسلاك كهربائية تضرب زجاج الساعة، ولا تفلح في دخولها. كنا نصغر شيئاً فشيئاً. الساعة الرملية تصير بحجم كف اليد. مشاهدون بوجوه بلا ملامح، في قاعة سينما، ينتظرون أن تنقلب الساعة، مرة أخرى.

درس تربية عسكرية

دودةٌ طويلةٌ بلا نهاية، كنتُ. لست أفعى! دودة زهرية نحيلة، تخرج من أرض ذات رائحة مطرية، أمشي قفزاً. ونهايتي توغل في أعماق الأرض.البشر من حولي ديدان مختلفة الأحجام، ينطون ويتقافزون على الأرصفة، يرتدون ثيابهم المعتادة، يركبون السيارات. كلهم ديدان بلا نهايات.الأبنية متطاولة، نوافذها زجاجية صغيرة. أحمل حقيبتي المدرسية، كانت ملتصقة بي، وأشعر بثقلها على ظهري. أدخل المدرسة، نصطف بانتظام.

ديدان بأعداد هائلة، يلتصق بعضنا ببعض. أحس أننا قطعة لحم في مقلاة كبيرة. يسقط مطر شديد. أقول لنفسي: سأموت غرقاً بالزيت. هذا زيت وليس مطراً.

تخرج معلمة التربية العسكرية. كان وجهها مدوراً، وتبدو دودة سمينة. تصرخ: رتلاً ترادف. نُخرج أذرعنا ونضعها على أكتاف بعضنا. نتحول إلى ديدان ترتدي اللون الخاكي: أسبل. تقول بصوت جاف. تنزل الأيادي: يا حيوانة، خلي عينيك قدامك. تضيف.

أرتجف. أتطلع حولي، كنا نهتز ونرتجف. أكاد أغيب عن الوعي. تقول معلمة العسكرية: أهدافنا. يخرج صوتنا قوياً هادراً مثل ضجيج بركان: وحدة حرية اشتراكية.

لم أزل أرتجف. تنظر المعلمة إليّ بعينين غاضبتين. تتقدم نحوي. تنزاح الديدان. وحيدةً في باحة المدرسة ابقى، ومعلمة التربية العسكرية تتقدم نحوي، تصفعني، وتمسك بشعري. يطير شعري في الهواء. ينبت شعر أشقر، يطول وينبت. تلفه حول يدها وتلوي رقبتي. تقص شعري، وتلقي به أرضاً: ـ اربطي شعرك في المرة القادمة.

ألمح خصلات شعري على الأرض الموحلة. تقول:

ـ ازحفي على الأرض.

ألتصق بالأرض. أزحف على بطني، وأغمض عيني، وأنا أقلص بطني، وأدفع برأسي نحو الأمام، لأسلم من ركلاتها.

فرجينيا التي تغرق

المشهد رمادي أزرق، والبحيرة التي أحيطت بأشجار من أغصان متدلية بلا لون، تشبه أواني الكريستال. كانت هناك فرجينيا وولف تقف على الحياد. لعينيها لون عيني، وترتدي فستاني القصير. الفستان الذي تخيط أطرافه، وهي تضع الحجارة التي سترمي بها في النهر. أصابعها تؤلمني. هذه أنا، أصرخ، فيخرج صوتي من حلقها:

ـ أنت ماذا تفعلين؟

لا تجيب. وتكمل خياطة الثوب، وتملأ أطرافه بالحجارة. أمشي. هي أنا، وأنا هي. أخطو مثقلة باتجاه النهر. أنزلق في الماء الفضي، وأقول:

ـ لا أريد، بعد اليوم، العيش مع الأموات. لا أريد أن أرى المزيد من المنامات. تعبت. أريد ليلاً هانئاً. بالكاد أتحمل ثقل حياتي.

تصمت. كنتُ هناك، امرأة تنجرف إلى القاع. شعري يطير في الماء. استسلم لعذوبة السكون من حولي. فستاني القصير يجذبني نحو الأسفل. انجرف. شعري يتطاير في الماء. أسمع صوتي من داخل أعماق المياه. شفتاها تنفرجان:

ـ كيف نكتب نصاً حديثاً عن هذا الموت؟

قلبي المعلق

كائن نحيل وعظامه ناتئة. سواده الغامق يجعله كحلياً. يمشي على أربع، لكنه إنسان. في نهاية مؤخرته، ذنب طويل. يلحق بي بسرعة هائلة. أراه من بعيد. قلبي معلق على شجرة.

كان واقفاً بلا حراك. قلبي شخصية مستقلة بأوردته وشرايينه. وهو نفسه قلب الخروف الذي فلقته نصفين، معلمة العلوم في مخبر المدرسة. يومها أغمي علي، وبقيت يومين في سريري.

كان قلبي واقفاً ينتظر الكائن الأسود. أراه وأدعو أن تتوقف الساعات عن العمل، ولا تأتي الثانية عشرة؛ فأنا السندريلا التي تراقب قلبها الواقف بحيادية تامة.

فجأة، خرجتُ من العدم، صرتُ في المشهد. ووقفت أراقب الكائن الذي يركض بسرعة خيالية، ولا يصل إلى قلبي المعلق على شجرة. كنت أرتدي فستاناً أبيض، وفي قدمي حذاء زجاجي رقيق، كعبه مثل طرف سكين، وأرفع شعري في جديلة طويلة تلتف حول خصري، قبل أن تستقر أعلى جبهتي، وأحمل بيدي شريطة حمراء، وأتلفت من كل الجهات، لأن صدري الفارغ كان مثل عين عمياء. أصوات ضحكات فاجرة. أدخل يدي في التجويف. انظر إلى الكائن الذي يقف أسفل الشجرة، ويصرخ مثل

رجل. تخرج يدي من ظهري. تدق الساعة. إنها الثانية عشرة. أركض بعيداً، ثم أتهاوى في حفرة لا قاع لها.

أهوي، وقلبي يسقط ورائي. ألمحه مع بضع قطرات دماء. وراءه كان الكائن الأسود.

لا تنتهي الهاوية ونحن نسقط. ولكني ألمح فستاني يتحول إلى أسمال بالية، والحذاء يختفي.تبقى هناك فردة معلقة في الفضاء، عند نقطة ثابتة لا تتهاوى معنا. الشريطة الحمراء اللامعة تتحول إلى خيط قنب. وعربة ملكية تظهر وتسقط من الأعلى، وتتحول إلى بطيخة كبيرة، والحصانان إلى فأرين. جدائلي الطويلة تنفصل عن رأسي. ألمح وجهي في مرآة تطير في فضاء الهاوية. كنت صلعاء تماماً.وقلبي يدور، دون أن يقترب من تجويف صدري.

الهاوية لا تنتهي.

غيمة مثل مخدة رضيع

أرتدي معطفاً أحمر من الفرو.

أجلس قرب أمي، بين الجارات. تمسك كل واحدة منهن بخدي، تقرصه. أتألم وأصمت.

من العيب، إصدار أية حركة أمام السيدات اللواتي يتناوبنني كلعبة. أمي تنظر بكبرياء، إلى جديلتيّ الطويلتين.

يقبلنني. وبصوت واحد: اللهمّ ما صلّ على النبي. كنا نجلس في صالون جارتنا، معلمة الموسيقا التي تحبني وأحبها.

أهرب من حضن جارتنا. أقول لأمي إنّي سأطير. تضحك هي والجارات، ويتابعن التدخين وقراءة الفنجان. أفتح معطفي الأحمر. كنت فراغاً، وفي قلبه غيمة.

أرمي المعطف، فأصير غيمة. تجنّ أمي، ألمحها مذعورة. أضحك وأقول: أنا فوق. كنت غيمة اختبئ فوق الخزانة. تنكش أمي أغراض البيت، تقلب الأثاث، ولا تلمحني. أشعر بأصابعها. أضحك، أمد يدي إلى جسمي. تخترق اليد الغيمة، غيمة بيضاء تماماً، وصغيرة مثل مخدّة رضيع.

سكين

السماء سكين سوداء كبيرة، مقبضها مصنوع من نفس معدنها، تلمع بصدأ برتقالي.

الغيوم تجاويف تأكلها من حوافها وداخلها، لكن النصل حاد، ويلمع طرفه بنجوم فضية.

تظلل السكين سقف البيت، تعلو وتنخفض مثل رقاص ساعة مقلوب. أجلس قرب مدفأة، أضع رأسي بين ركبتي. كلما انخفضت السكين، تضغط على السقف، فيقترب من رأسي ويمطّ مثل إسفنجة، ثم يعلو معها عندما ترتفع. أمي تقول:

ـ من يتبول في فراشه، ستُحرق أصابعه، بسكين المطبخ الكبيرة.

تضحك النيران. تقترب السكين، ويهبط السقف، يتحول إلى اسفنجة مطاطة. تنضغط الكراسي والأرائك في غرفة الجلوس، ويبدأ السقف بملامسة رأسي. ألوذ بركبتي، وأتمدد حتى لا أتحول إلى إسفنجة. أنظر من النافذة. أرى الفراتٍ بمحاذاتها، ماؤه ينسكب من النافذة، فتغرق الغرفة، وتعود السكين لضغط السقف. الأثاث يَعصُر ماء أصفر. السكين تقترب، جسمي مشبع بالماء.

كنت إسفنجة، ألمس جسمي، فتغيب أصابعي في لحمي.

مثل عيون عمياء

الكائن الأسود نفسه، يمشي على قدمين. ذيله يلوحُ الهواء من حوله، ويثير الغبار. يمسك بيدي ويحمل حقيبة مدرسية. الأولاد من حولنا يبتسمون له.

خائفة. وأحاول الإفلات منه. يشد على يدي بقوة، ويعصر كفي. تخذلني ركبتاي، أشعر بوجع حارق في مفاصلي، فيجرني وراءه. أبكي، وأتعفر بالغبار. يرفع ذنبه، وأنا وراءه يجرني مثل عربة. يقف على قوائمه، ويتحول صدري إلى عربة ركوب. قطعان السلاحف تزحف وتجلس داخل العربة. كانت تخلع دروعها. إحداها تضع رجلاً فوق رجل، ثم تدخن سيجارة نعناع خضراء، مثل التي كانت تدخنها أمي مع جارات الصباح. أقول لها:

ـ ألا يكفيني الغبار؟

تصرخ بالبكاء، ويتوقف الكائن عن العدو. يخبطني بذيله، ويلوح بي في الفضاء ويجهش:

ـ أيتها القاسية!

يخرج أرنب أبيض، يقول:

ـ أنت في بلاد العجائب.

تظهر مرآة من الطريق الإسفلتية. مرآة ضخمة، تسد الأفق، وكأنها نهاية العالم. انظر في وجهي، وأقول للمرآة:

- لا بد أني أحلم. وهذه تأثيرات القصة التي قرأتها قبل النوم.

ألمس المرآة بيدي. نور كبير يبهر عيني. أخطو خطوة أخرى. أقع في هاوية لا قرار لها. يخرج قلبي ويسبقني، ويظهر ذلك التجويف المدوّر في صدري، فارغاً مثل عيون عمياء.

فراشة بقرني وعل

فتاة صغيرة في ورقة، داخل دفتر رسم.

يد عملاقة ترسم أصابعي، ثم تدور وترسم عيوناً بألوان فاقعة.

أعترض: ليس هكذا!

تجفل اليد، ثم تأتي بمحاة وتمحوني.

الصفحة بيضاء. ترسم اليد خطاً مائلاً بلون أزرق، وشقائقَ نعمان، وأغصاناً من شجر الديس، وحقلاً واسعاً من الفول. قرون الفول كبيرة. أجلس فوق أحد قرون الفول، وأكون فراشة. تقترب اليد، ترسم للفراشة قرني وعل، وتطيل الأرجل مثل نعامة، وتلوّن العيون بالبرتقالي. أطير بعيداً عن الصفحة.

أحاول العودة إلى الصفحة البيضاء. اليد العملاقة تمحوها بمحاة. أسقط في بياض الصفحة، ثم أكبر لأصير بحجم اليد، وأقضم المحاة وقلم الرصاص. أقول للمرآة:

ـ لا بد أن في الأمر خطأ ما؛ فقد نمتُ وحلمتُ بالتحول إلى أليس العجيبة، وليس إلى فراشة بقرني وعل!

أقف على الصفحة البيضاء. أحمل المحاة وأمحو نفسي.

أرجحة فوق زعانف الدلافين

الفضاء يغصُّ بحيتان بيضاء ودلافين لامعة. الكون كله تلك البقعة المتاحة بين الأرض وبطون الحيتان والدلافين. أمسك بيد ابنتي وهي تصرخ:

- إلى متى سنبقى متشردتين؟ تعبت منك ماما. لو كنتِ معلمة مدرسة فقط!

نركض بسرعة، ونحمل حقائب صغيرة. لا أفقَ واضحاً، البشر يتدافعون من حولنا. الرمل حارق. والعشب الذي ينمو فجأة، ويختفي بالطريقة نفسها، يتحول إلى أشواك حادة. وفي نهايته، تتفتح زهور صفراء.

الحيتان طائرات، والدلافين دبابات طائرة. نحن على شاطئ، في مكان ما، ربما هو بيروت أو اللاذقية. الأمر غير واضح. الأمهات يحملن أطفالاً ويهربن بسرعة. وجوه جثث متكومة لأطفال رأيتهم على شاشة التلفاز. بطون الحيتان والدلافين تنفلق، وترمي أحشاءها علينا. تغمرنا الدماء والأمعاء. نهرب منها. تمسك عجوز بيد ابنتي، وتطلب منها جرعة ماء. الصحراء تجلدنا. أحمل ابنتي فوق ظهري، فأسقط. تقول:

- ماما صرت بطولك ولسّه بتحمليني!

نسمع صوت مذيعة يخرج من شاشة طائرة في الهواء. نحاول الإصغاء. الجميع يضعون أصابعهم على أفواههم. الجثث تقف وتصغي. كانت لغة غير مفهومة. تصرخ النساء بالمذيعة، وتقول: لا حول ولا قوة إلا بالله. تتحول الوجوه إلى الأصفر. ترتدي الأجساد عباءات سوداء. الجثث تتحجب. ابنتي تقول:

- يا رب، سامح ماما.

تلبس عباءة، وتمضي مع الركب.

الحيتان تستعد للهبوط، والدلافين تدور حولنا. لم يبقَ هنا من متسع. أنادي ابنتي، تختفي مع العباءات السوداء. تقترب الحيتان والدلافين، تنفلق أحشاؤها، وأنا أركض، أصير صورة داخل شاشة، وأحاول تهشيم عدسة تطاردني. أصرخ:

- ضاعت ابنتي.

تقترب الحيتان أكثر. ابنتي تجلس على زعنفة حوت، يلفها سواد. تضع نظارات سوداء كبيرة على عينيها، وترفع يديها نحو السماء التي كانت حيتانا ودلافين. تقول:

- يا رب، سامح ماما وما تْفوّتْها جهنم.

شاشة تلفزيونية طائرة تزعق: انتصار جديد للمقاومة!

الجثث والنساء يركبن زعانف الحيتان والدلافين، ويتأرجحن.

بلاد العجائب

كنتُ " أليس" في بلاد العجائب.

تنورتي ممزقة، وركبتي تنزُّ دماً، وأصرخ بالملكة التي تحمل وجه أمي، وتضع حولها أواني مطبخ ترقص من حولها، وتفرك نفسها بالصابون. الطنجرة تحتكُّ بالمقلاة، والملاعق تحتك بالسكاكين، الأكواب تطير ويصطفق بعضها ببعض، ثم تطرق الشبابيك أقول لأمي:

ـ ليتني ولدت في القرون الوسطى.

ـ كانوا سيحرقونك.

أسمع صوت قنفذ يقول: أنت أليس؟

أتلمس ركبتي المجروحة، وأعدو بسرعة، أصير صورة في صفحة. يخرج من هناك كاتب أعرفه، وأحفظ قصصه وصورته، لكنه يبدو بعيداً، يحمل لي حوريات بحر في يديه، وأحذية زجاجية، ورجلاً بحجم إبهام، ثم يقف على تمثال من حجر، يتحول وجهه، ويقف في مواجهته سنونو. يأخذ من عينيه زمردتين. أقول:

ـ هذه قصة أعرفها.

لكن الأمير التمثال يحرك يديه الحجريتين، ويقول: أليس، صرتُ أعمى!

ـ لستُ أليس!

أخلع فستانها. يضحك الأمير، وأسمع نحيباً. اقترب منه. تظهر مدينة جديدة وأزقة معتمة. على قمر تلك المدينة، كان يجلس فتى مشعث الشعر، ينظر بعينين ساهمتين، إلى جثة امرأة معلقة على حبل غسيل. الأطفال يمدون أياديهم، يشحذون النقود، يقتربون مني، ويمزقون فستاني نتفاً صغيرة، ثم يمضغون القماش الذي يقرمش تحت أسنانهم، يجسون جسمي ويقتطعون أجزائي. يقول لي الأمير: ألم أقل لك أنت "أليس" وهذا "أوليفر تويست" الحزين.

أبقى مجرّد شفتين وعينين في الهواء، أطير هرباً من أياديهم، تلحق بهم أرانب بيضاء، فمي ينفتح على حفرة سوداء، واختبئ في عيون تمثال الأمير:

ـ لكني لست أليس. أقول واسمع صدى صوتي، داخل تجويفين مظلمين.

مثلثات الغرام

مثلثات برؤوس حليقة. أحدها تتخلله شعيرات بيضاء، تركض أمامي، ألحق بها. على إحدى زواياها، عيون غزلان تتأرجح بفرح.

أستاذ الرياضيات يجلس أعلى رأس أحدها، يشير بعصا طويلة معدنية إلى رجل جالس فوق مربع يتأرجح: هذا تالس.

نحن داخل السبورة، نضحك على تالس. تقول صديقتي ذات العينين الواسعتين: فيثاغورث أحلى.

أنظر إليه، وأنا حرف لاتيني غير واضح، صديقتي كانت إشارة ألفا، وتضحك بعينين واسعتين سوداوين، تنطّ عيناها فتختلط بأعين الغزلان، تضحك البنات. فيثاغورث وتالس وأستاذ الرياضيات والمثلثات والمربعات، يجلسون على مقاعد خشبية، ينطون. يقول أستاذ الرياضيات، وهو يلامس بعصاه كتفي:

- لماذا يحمرُّ وجهك عندما تقفين؟

تقول صديقتي، وهي تكرج بين عيون الغزلان:

- إنها تحبك أستاذ. لذلك صارت حمارة بمادة الرياضيات.

أقع من السبورة، وأصير على بلاط الصف، انتحب وأنشج. أصوات البنات تقهقه، وأنا أبحث عن ممحاة السبورة لأختفي. عيون الغزلان تقفز من المثلثات.

ذنب حول الرقبة

الكائن الأسود، يحرق كتبي، يمزق أوراقي، ويندس تحت مخدتي، ثم يهمس:

ـ لو فتحت صفحة جديدة، ستقوم الدنيا وتقعد فوق رأسك، ولو قرأت كولن ولسن مرة ثانية، سأرمي بك في الهاوية.

أغفو في المنام.

الكائن الأسود مخدتي. ذنبه يلتف حول خصري، يهش نومي. زعيق في البيت: قليلة أدب.

أقول:

ـ أحب قراءة كولن ويلسن.

تصفعني أمي، وتطلب مني الاستحمام بالماء الساخن، خمسَ مرات في النهار، عقاباً على خطيئتي. الكائن الأسود معلق في رقبتي بينما أنا أستحم. صرت فجأة السندباد، والكائن تحول إلى الشيخ المخادع، يصير جزءاً مني. ثقله مع الماء الساخن، يحول لحمي إلى قروح، يلف ذنبه حول رقبتي، ويقول:

ـ هذا عقاب البنات المهذبات اللواتي يقرأن كولن ويلسن..

الجميلة النائمة

عمودان يطيران في الهواء.

في قمة كل منهما، سرير تتدلى منه ملاءات ملونة.

العمود الأول، أقف عليه، وأتأرجح. أنظر بهلع، الى الجسد المسجى على السرير. أقترب من العمود، أمسك بإحدى الملاءات، أتبين الوجه، كان وجه دعد حداد. جسدها غير واضح الملامح. أقول لها:

ـ ألم يأت أميرك بعد؟

لا ترد. أحاول الاقتراب منها، فتبعدني ريح قوية، ولا أسمع سوى صدى صوتي. أقف فأرى نفسي أرتدي ثياب المدرسة، ولم أزل في السادسة. أصرخ:

ـ أين الأمير؟ ليأت ويقبل الجميلة النائمة، ولتستيقظ من سباتها.

أسمع صوتاً غريباً يخرج من الريح: هذه امرأة بلا أمير.

ـ ليأت أحد إلى هنا. أصرخ ثانية، وكأني على وشك الموت. العمود يبتعد عني، أبقى في سريري أتأرجح. دعد حداد تبتعد. أتلمس شفتي، وأهمس: أنا من أهل الكهف، سقطت سهوا من القصة.

ـ أهل الكهف ناموا، يرد صوت الريح.

ـ لافرق بين النوم واليقظة.

- دعوا الشاعرة تنام بهدوء.

يبتعد العمود مع سريره. تأخذني الريح في دوامة. اسمع صوتي: لا تتركوا الجميلة النائمة بلا قبلة!

رأس ميدوزا

الكائن الأسود، يقترب مني. أنا نائمة في سريري.

الكائن بعين واحدة، عين حادة، بياضها أحمر، تحدق بي. تقترب العين أكثر. أصرخ، لا يخرج صوتي. يخلع القناع سواده، ويتناثر شعر فاحم. تظهر عين جديدة. تتفرع خصلات الشعر، وتتحول إلى رأس ميدوزا. أغمض عيني حتى لا أتحول إلى حجر. صوت معلمة التربية العسكرية يقول:

ـ سأحلق شعرك على الصفر، في المرة القادمة، يا قليلة التربية.

أجنحة للطيران

مدام بوفاري تلعب بخصلات شعرها، واقفة كما حلمت بها دائماً. أجلس في صفحة كتاب مبهم اللغة. أقول:

ـ لا أعرف لماذا الرجال أجلاف؟

تنزل دموعها، وتتبخر عن وجهها. يأتي رجل وسيم، فيمسك يدها، ويهرب من أمامي. أقفز من الصفحة وأقول:

ـ اتركها أيها الجلف.

لا يبدو أنه يسمعني. أركض، وهما واقفان يتبادلان القبل. أركض ولا أصل إليهما، أقول لها:

ـ لوكنت مكانك لفعلتُ ما فعلت.

ألمح قطاراً قادماً من بعيد، وسيدة جميلة تضع قبعة من الفرو، تنظر ببلاهة إلى مدام بوفاري، وأنا تحت سكة الحديد. أصرخ ولا تسمعني: سأموت. تنظر السيدة الجميلة إلى سكة القطار. ازدحام شديد وبشر غرباء عني. لا بد أنها "آنا" أقول لنفسي، سترمي بنفسها تحت عجلات القطار. أصرخ ثانية، ولا أحد يسمعني. أقول:

ـ لو كنتُ مكانك لفعلتُ ذلك.

يأتي القطار. سأموت معها، أغمض عيني. ترمي "آنا" بثقلها تحت

عجلات القطار. تنبت لي أجنحة كثيرة، أجنحة تخرج من رأسي، من ضلوعي، من قدمي. أصبح كتلة من الأجنحة. أقول لمدام بوفاري الغارقة في القبل والبكاء:

- لو كنت مكانك لفعلتُ ما فعلته.

تسحب من صدرها قارورة زجاجية صغيرة، تبتعد عن حبيبها، تشربها بسرعة. تتألم. يهرب الرجل الوسيم، وأنا أحط بأجنحتي على كتفيها. كنت بومة، أنعق بعينين مفتوحتين.

- الرجال أجلاف، وموت النساء متشابه.

البومة التي كنتُها تشبه بوم غادة السمان، في صورها المنتشرة على صفحات الجرائد. الفرق الوحيد أني كنت بومة بلون أزرق و شعر أحمر، تتدلى زوائده على وجهي، تماماً مثل شَعر مدام بوفاري!

تفاحة حواء

ثلج كثيف. تنور طيني، على جوانبه حطب كثيف. جدتي تدخن الغليون، وتضحك ضحكة رقيعة. يبدو طقم أسنانها حبات ثلج تذوب أمام التنور، وتتحول إلى قطرات من الماء.

جدتي تقول: أنت محراك التنور.

أصمت، ولكني لا ألمح نفسي، أشعر بوجودي. وأسمع فرقعة الحطب داخل التنور، فأصير عصفوراً أخضر. تغني جدتي: أنا الطير الأخضر أمشي وأتبختر.

تطلع شجرة يابسة، وعليها غصن محروق. أجلس فوق الغصن.

أمي تكسر الغصن، وتثبت مرآة في الثلج، ثم تأمرني بصوت جاف:

ـ انزلي عن الشجرة، وشُوفي كيف صرت بشعة.

أنزل عن الشجرة، أصفق بجناحي، وأنظر في المرآة، فلا أرى سوى الثلج. تقول أمي، وهي تحدق في المرآة:

ـ من هي أحلى بنت في العالم؟ تصمت المرآة.

أنقر سطح المرآة الذي يتحول إلى سطح جليدي، ينكسر. تخرج تفاحة حمراء عملاقة، أقضم التفاحة، وأقول لجدتي، وأنا أتمدد عارية على الثلج:

ـ أريد رجلاً يقبلني.

سهول الرواية

أسراب من الدلافين، تطير من حوض استحمام ضخم.

المياه التي ترشح من الجدران، صدئة. أجلس على كرسي الحمام، أقضم الأوراق بشراهة، وأقول:

- أنا مصابة باكتئاب.

صوت أمي من الخارج:

- قومي اشتغلي مع أختك، ومشطي شعرك.

أمشط شعري بمكنسة، ولا أتوقف عن قضم الأوراق. أسراب الدلافين تخرج من حوض الاستحمام، وتعود إليه في حركة دائرية طائرة.

لم يبق هناك من أثر لكتب في يدي.

كل يوم أقرأ صفحة من رواية " **فقهاء الظلام**". تضحك الدلافين وتصفر: غبية. ثم تصفر وتبدأ برقصة "تويست". أقول لها:

- بل أنت الغبية. هذه رقصة من الستينات.

تخرج سهوب صفراء من صفحات **فقهاء الظلام**. أقول للدلافين:

- تشبه ألوان فان كوخ.

- غبية. هذه سهول الرواية.

تدخل أمي الحمام، وتحمل بيدها، مكنسة طويلة، وتقول:

ـ هيا اركبي عليها أيتها الشريرة، ودوري العالم كله.

انتحب وأدردر الورق وأقول:

ـ كنت الأميرة مع سندباد، ولم أكن العجوز الشمطاء.

عباد الشمس

طبقات متعاقبة من حشود البشر، يصطفّ بعضهم فوق بعض، ينحشرون ويتدافعون. تبدو طبقات البشر مثل طبقات الأرض في رسم جيولوجي.

صمت تام. تقترب الصورة أكثر. كانت هناك عدسة تضيء المكان، تصير الرؤية أوضح. رجال بعمامات وقلنسوات غريبة الشكل.. هذا هو دانتي ألجيري، بوجهه الذي لا أحبه. وقريباً منه، عمامة سوداء تنفلت من رأس صاحبها وتطير. الرجل ممتلئ، قصير، يجلس على صهوة جواد خشبي. دانتي ينظر إلي عابساً، بينما تهرب منه بياتريس حافية القدمين، مشعثة الشعر، وهو يمطّ صوته بكلمات ممجوجة: لقد صنعت لك تاريخاً لم تحلمي به.

أظهر فجأة، وأقول: يا لك من متبجح!

ذو العمامة يقول:

أعيلها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

أصير أكثر سخطاً:

ـ لكنه ليس بيتي المفضل. أصرخ.

يهز رأسه بأسف، ويهش جواده الخشبي ويقول: بنات آخر زمن.

أطير إلى الطبقة الثانية، فأرى أشكالاً غريبة لمخلوقات نسطورية، جوزفين تجلس على كنبة من تنك، وتقول: نابليون كان مملاً في الفراش. أضحك بصوت عال، وأهمس في أذن نابليون الواقف قربها:

- ألم يكن إرضاء جوزفين أجدى من غزو العالم؟

يهشني كذبابة، وأدس نفسي بين الجموع. لا بد أنني أحلم، وأظن أني الآن في طبقات الجحيم. أنتبهُ فجأة إلى صوت ساخر: فصل في الجحيم!

كان هناك جالساً في صحراء اليمن، يتابعني بعينيه ويقول: كله خراء.

أهرب، فأتعثر بأذن مقطوعة، وألمح سرير فان كوخ، وسهوياً قمحية، أقول:

- أريد زهرة عباد الشمس. من يأتِ بها، أطارحه الغرام فوق هذا السرير، قبل طلوع شمس الغد.

أرى الرجال أمامي، وقد تحولت أعضاؤهم الذكورية إلى زهور عباد الشمس، كأن طبقات الأرض تغيرت، وتحولت إلى مرج واسع من زهور عباد الشمس.

تنتصب الزهور بخيلاء، على أجساد محروقة تحت الشمس.

كان يضحك ويرمي الكتب

كان أنطون مقدسي يجلس على كرسي مهلهل، يفرم البندورة، وتفاحة خضراء. غريب في بلادنا لا نعرف كثيراً التفاح الأخضرا لماذا رأيته دائماً يقشر تفاحة خضراء؟ أحمل عدسة كاميرا وأعتذر له:

ـ المصور تأخر، وأنا من سيصورك. ستكون بداية الفيلم جملة كتبتها يوماً: نحن مواطنون ولسنا رعايا.

يضحك باستهزاء: نعم نحن كذلك.

ينزّ من جلدي سائل أزرق، وأنا أحاول إضاءة المكان، وهو منشغل بتقشير التفاحة. أقول: لماذا لم نُخلق منذ ألف عام. يضحك. أقول:

ـ لا تضحك. فيبتسم بصمت، ثم يهمس:

ـ هل سأكون داخل العدسة هذه. أومىء بالإيجاب، فيقوم، ويحمل كتاباً قديماً، ثم يبدأ بنزع كتبه،

ويرميها على الأرض. أقوم بتصويره. يقول:

ـ أبعدي العدسة عني.

كان لطيفاً، لكنه ضرب العدسة بكتاب، فتحطمت. وقال لي: هذه الكتب لك.

جلست أبكي فوق حطام العدسة، وأنا أجمع الكتب، وأعطس من الغبار. تلفتُ حولي، وصرختُ:

- أين أنت؟

سمعت صوتاً مبحوحاً وبعيداً:

- أنا الغبار.

أقف وسط الغبار وأهمس له:

- هذه جملة من روايتي!؟

غابة من رمال

غابة من رمال. كثبان على شكل أشجار تتدلى منها أعشاب شوكية من الرمل الهش. صوت مياه. أركض إليه، فتنهار تحت قدمي الأعشاب الرملية، ولا أصل إلى مكان. ألمح أضواء بعيدة، أهرع إليها وأدخل الفيلم. أبطال الفيلم يجلسون في قلب العدسة. العدسة ساحة زجاجية سوداء.

كانوا بوجوه من بلور. لم ألمح أياً منهم. دموع إحداهن فقط، هي التي جعلتني ألمحها قبل أن تسقط في الرمل وتختفي. أقول لها:

- في الفيلم أحببتك. الفن يجعلنا أكثر استبطاناً لجمال الأشياء.

تضحك مخرجة الفيلم، وتقول: أنت في الحلم. وبإمكانك أن تضحكي وتنسي أنك كاتبة.

أقول:

- أنا غزال سوف يموت قريباً من الألم. الغزلان عندما تتألم، ينفجر قلبها. تقول المخرجة: الحزن لا يعني الاستسلام. أتذكر أنها بعثت لي بماسج من باريس يشبه كلماتها هذه. ربما لست أحلم. أخرج من دائرة الضوء، انظر حولي، ألمح غابة الصحارى.

إذاً، أنا في حلم!

نحو قعر العالم

نهر موحل جارف يخترق اليابسة. بقرة نافقة، أثاث محطم، جثث تطفو على السطح. تظهر أمي تحاول السباحة، أصرخ: ماما. أقف ولا أستطيع الوصول إليها. رجلاي تغوصان في الوحل. البحر هائج، ويضغط على اليابسة، يأخذ في طريقه المدن، ويبتلع النهر، يجتاح مدينتي وقريتي. رجلاي تتحولان إلى جذعين راسخين.

الماء يأخذ كل شيء. أصير في السماء. كانت هناك خريطة غريبة، لكنها تبدو مثل خريطة سوريّة، رغم أنها ليست بحدودها التي درسناها في المدرسة. المياه تغمر الخريطة، وتأخذ في طريقها كل شيء. تتحول الخريطة إلى لون أزرق:

- أين أنا؟

أجد نفسي على قمة جبل، وحيدة، والطوفان يكبر. تلوح من بعيد سفينة، أقول:

- هذه سفينة نوح!

تنزل من السماء عربات غيوم، وعليها أزواج من الحيوانات.

أغضب، وأنادي الله:

- لا أريد النجاة.

أقتلع قدمي من الطين، أقف بحجمي الطبيعي، على قمة الجبل الشاهقة. أقف بثبات، ثم أرمي نفسي في البحر. أهوي. أغمض عيني. يسبقني قلبي كالعادة، نحو قعر العالم الذي تحول إلى بحر كبير.

السماء تثلج رماناً

كرسي يطير في الهواء، مصنوع ببراعة مثل منحوتة سريالية. أثداء، ووجوه رجال مغمضي العيون. الكرسي يطير في ريح، خطوطها سوداء مثل سماء فان كوخ. يجلس أسفل الكرسي، وجهُ الرجل الأول الذي أحببته. يحدق عالياً في السماء، ويهش خطوط الريح عن وجهه، يكتب بيتاً من الشعر: تنأى ويغشى جفونها...أصرخ بقوة:

ـ كنت محظوظة لأني لم أتزوجك، أيها الشاعر؟

يظهر طريق ترابي ضيق على جانبيه، تتأرجح ثمار رمان مفتوحة. احمرارها النحاسي يلمع تحت الشمس. أضع يدي على عيني وأقول:

ـ احجب الشمس، فأنا مصابة ببرص في عيني. يقول:

ـ وهل أنا الإمام ؟

ـ كنت في حياتي السابقة، أميرة بغدادية، أسكن فوق جسر حجري وحيد.

يضحك:

ـ أنا قاتلت مع الفلسطينيين في لبنان، عندما كنتِ طفلة.

ـ صرعتَنا بالقصة! أحكم عليك بالتحول إلى زوج يمشي كل يوم على قائمتين، وفي أخر المساء، لا ينبت له جناحان، عندما يأوي إلى

سرير زوجته. أنا سأعود إلى جيلي السابق، أمشي على جسر وحيد. لا أطيق العيش مع رجل، في بيت واحد.

يضحك بسخرية، ويهز أشجار الرمان. تبدأ السماء تثلج رماناً أحمر.

أبكي:

- قلتَ إنكَ لست علي بن أبي طالب، فكيف حجبت الشمس؟

يقول:

- هذه دموعك.

جبل الزنابق

سأقول للرجل الذي يحبني: إني أريد بيتاً من مرايا.

تظهر عرافة عجوز، تضحك مني، تلوح بعصاها فتصنع مرايا عملاقة. أقف في علبة المرايا عارية. ألمح وجهي في كل مكان. تختفي العجوز ذات القناع، فأضرب بيدي على المرايا:

- قلت لك: أريد مرايا فقط، ولا أريد سجناً من المرايا.

- هذا ما أنتِ عليه. رواياتك تعج بالمرايا.

أسمع صوتها يخرج من شق أسود في إحدى المرايا. أتهاوى واشعر بظمأ شديد:

- أرجوك دعيني أخرج.

اضرب بيدي على المرايا فتنبثق المياه تحت قدمي، وأرى صورتي تتشكل في المياه، تنبت على جوانب المياه أشجار خضراء، وورود وسماء فسيحة. على أحد الجوانب يجلس فتى جميل، أتمعن في وجهه أصرخ: هذا أنت؟ لا يحيد بنظره عن وجهه في البحيرة. أقترب منه، ألمسه فيتحول إلى زهرة نرجس. أتضرع بصوت عال: سامحني.

يعلو مستوى المياه في صندوق المرايا. تغمرني أزهار النرجس، أتذكر أني قلت يوما لحبيبي: الحب جبل من الزنابق البيضاء، يثقل

ظهورنا ونحن نغوص في مستنقع الوحل. ألمح موتي، وأشاهد وجهي الفزِعَ في المرايا. يغمرني الماء، أرى فتى جميلاً يتأرجح في أعماق المياه، فتى كان منذ قليل، على ضفة البحيرة، وهو يلامس بيده الباردة، جسدي الميت.

كنا نتأرجح مثل دمى بلا عيون في الماء.

أرجوحة

أرجوحة طويلة، معلقة بين كوكبين. الأرجوحة مصنوعة من أثواب نسائية مزركشة فضفاضة. على الأرجوحة، أجلس مدهوشة، أقول:

ـ حبيبي يجد البدانة مثيرة. متأثر بجمال عصر النهضة.

أقف على الأرجوحة: فستاني طويل، ويكاد يختفي ذيله في الأفق، وهو يتطاير ورائي.

أراجيحُ معلقة بين الكواكب، تمر من أمامي. أضحك وأشعر بيد حبيبي، لكني لا أرى وجهه. يقول:

ـ مرَّ القرن الثامن عشر، ولم يمطر في عقول العرب.

الأرجوحة ترتفع:

ـ أحب اوكتافيو باث.

تختفي يد حبيبي، بعد أن أنهي جملتي.

ـ لا تَغَرْ بعد الآن.

ـ أغار من أمواتك الذين تحبينهم.

ـ والأحياء؟

ـ الأحياء لا أغار منهم.

ترتفع أرجوحة، وتبدأ الأرض بالاحتراق. يصل الحريق حتى

الأثواب، وتبدأ الأرجوحة بالتهاوي. أتعلق بطرف الأرجوحة. الأرض كرة من اللهب.

فضاء يعج بأراجيح وأثواب مزركشة. ولوحات جدارية لأمراء بشوارب دقيقة لامعة، ونساء بيضاوات مكتنزات، بصدور عارمة، يرتدين أثواب الأراجيح نفسها.

عجل أبيض كحمامة

جبل أخضر عملاق. أعلاه تتوضع قبة بيضاء. الجبل محاط بالبحر من كل الجهات. صوت أمي:

ـ ادخلي ورائي، بخرت المكان.

طريق ترابية ضيقة، بالكاد تمشي عليها سيارة صغيرة، تلتف حول الجبل الأخضر:

ـ الله يكسبنا رضاك يا شيخ أحمد.

في السيارة، مع أمي وجمع كبير من العائلة. أقول لهم: الشيخ أحمد في عقلي. ينظرون باستهجان. كنت أراه في عقلي ولا أراهم. وجهه طويل ونحيل، عظام وجنتيه ناتئة بشكل مخيف، عيناه حزينتان وساهمتان. شعره أسود كحلي، وصلعته بيضاء كهضبة من ثلج.

أشجار سنديان عملاقة تكبر كلما اقتربنا من القمة. أمام المزار، كانت هناك جموع محتشدة من البشر. أهمس لأمي: هل نحن في يوم القيامة. تلكزني: عن أية قيامة تتحدثين. أقول لها: أعرف كل شيء، أعرف أن قيامتنا مختلفة. لن أدخل المزار.

تمسك بي يد رجل لا أعرفه، وتحملني، ثم ترميني أمام مدخل المزار. ألمح عجلاً أبيضَ كحمامة، له وجه وعل، وصوته كشغاء حمل. أقول

لأمي: اذبحيني بدلاً منه. تضحك. نساء كثيرات، يتحلقن حولي. رجال يقفون بعيداً عنا. يرتفع صوت بالدعاء. ألمح سبحة طويلة، حباتها بحجم كرة القدم، يقف رجل، ويحاول أن يسّبح فيها، يساعده عدة رجال. أضحك منهم. تقول أمي للشيخ أحمد:

- يا شيخ اشفِ لي هذه البنت. دخلت دودة تحت جلدها، وسبحت حتى استقرت في رأسها، ولم نستطع إخراجها، انظر: رأسها فارغ.

يسحبونني. أتمدد أمام الشيخ، يمسك برقبتي، وفجأة يفتح رأسي. أرى دماغي، كما هو تلافيف غريبة. يفتح النصف الآخر من رأسي.. كان فارغاً ونظيفاً، يحملني من رقبتي، أكاد اختنق، وأقول: أنا أعرفك، أراك في مناماتي. يضحك ويجلس بوقار، ثم يبدأ بالأدعية. ألمح العجل الأبيض يفتح عينيه على اتساعهما. كانتا عينيَّ. أجفل، فيمسك الشيخ بيدي بشدة. أتألم. تلمع سكين حادة تحت وهج الشمس، تهتز أشجار السنديان العملاقة، وأقول لأمي: لماذا تنذرين النذور عني كلما عطست؟ تقول: لأني أحبك. أقول لها: سأموت يا ماما. تقول: سنوزع اللحم على الفقراء. أقول: سيكون لحمي. تضحك وتبكي وتقول: ستشفين يا صغيرتي. تقبلني من رأسي، وتمسك بي من اليد الأخرى، تشدها مثلما يفعل الشيخ. تقترب السكين من رقبة العجل الأبيض، ثم أشعر بحرقة الحزّ في رقبتي.

وداعاً غويا

لوحة ضخمة. نحن معلقون داخل اللوحة. الأرض رمادية موحلة. غيوم صفراء تتوضع في السماء، وتتهادى بين أقدامنا. أعدو بسرعة، بين جموع البشر المتدافعين. كانوا أنصاف عراة، بوجوه ممزقة وعيون مفتوحة على الفراغ، يهربون من شيء ما مجهول. الكبار يدوسون الصغار، يفتحون أفواههم، ويأكل بعضهم شعور بعض، ويقضمون أظافرهم، ثم يعفرون وجوههم بالتراب، ويلحسونه، ويتلمظون بمذاقه، كنت أعدو بينهم ولا تنتهي اللوحة، أهرب من زاوية إلى أخرى، بالطول والعرض. أبكي بشدة، وأصرخ: من أنتم؟ أتعثر بجسد طفل صغير، يجرُّ قدمه وراءه، ويرفع يده عالياً، وهو يمسك بذيل ثوب أمه التي لا تلوي على شيء، وتكمل طريقها تاركة إياه وحيداً. أحمله، فأسقط في بركة من الوحل. يظهر رجل ضخم: ممنوع الاقتراب من أي إنسان هنا. يقول، ويأخذ الطفل، ويجلدني بسوط، فينفر من جلدي الدم. تظهر أجساد تمشي ببُطْء، لكنها مقطعة من المنتصف، الأشلاء تتدلى منها، وتمشي وراء الجمع. من بعيد ألمح جداراً عليه صورة امرأة عارية، فَزِعة، هاربة من شيء ما. أحاول القفز من أسوار اللوحة، فتبدو فجأة أنها سور الصين، أتلمس حجارتها: إنها سور الصين فعلاً. البشر يتدافعون

ويتهاوون. ضجيج قوي. يدخل رجل عملاق، يقف أمامنا خارج اللوحة، عيناه حُفْرتا هاوية. ينظر بحزن نحونا، ونحن نتدافع ونموت. أصرخ به:

ـ أيها السارق: لقد سرقتني. ينظر إلي مذهولاً: أنت من تسرقين لوحاتي في مناماتك.

ـ ولماذا كل هذا العذاب ؟

ـ العذاب ليس موجوداً في عقلي. إنه هنا على الواقع، إنه لونكم يخرج من عقلي.

أسقط تحت أقدام الجموع. تدوسني أرجل دامية. أفقد الوعي، فيمد إصبعه، ويحملني من الهاوية، ثم يثبتني بلون أرجواني داكن، على الزاوية اليمنى من اللوحة.

ـ كل وجوهك كئيبة، لكني أعشق ما ترسمه.

يضحك، ويقول: لذلك، سأنقذك. يتركني في أعلى اللوحة. أصير امرأة نصف عارية، تجلس على صخرة، تراقب الموتى جوعاً. أقول:

ـ وداعاً غويا.

لا يرد... ويتحرك باتجاه اللوحة المقابلة.

حية سوداء

بيتنا في الضَّيعة، يرتفع بأسوار طين عالية، ويعوم وسط بحيرة. نقيق ضفادع على البوابة. ضفدع عملاق في مواجهتي، أتوسل إليه: أنتم تحرمونني النوم ليلاً. يمد لسانه كحربا ء، ويسحبني فأصبح في مواجهة عينيه العملاقتين: بنت مدللة. ثم يرميني بين أكوام الضفادع.

رجال بعمائم بيضا ء، يمسكون بأيدي بعضهم، ويسبحون في الهوا ء، مثل دائرة طائرة. تظهر أمي، وفي يدها مقلاة ضخمة، وإلى جانبها دست كبير، تغلي فيه الخراف: ادخلي إلى غرفة النوم، وابتعدي عن الصالون. ممنوع على النسا ء، دخولُ المجلس.

المشايخ يقيمون الصلاة. أندسّ بين الضفادع، وأشم رائحة زَنْخَة لحم، أتسلق الجدار الطيني، ويتحول جلدي إلى طين. ألتصق بالجدار، وتكبر أذني، فتتحول إلى صحن كبير يشبه رادارا. أثقب نقطة في الجدار، واتنصت على دائرة الشيوخ الطائرة. يهمهم رجل شيئاً عن أمير النحل وحرف السين والنون.

أخاف وأسقط وأسمع أزيزاً.

النحل.. النحل.

لم أفهم. أذهب إلى غرفة النوم. يفتح الشيخ بابي، ويصفعني على

وجهي: يا كافرة، ستطرشين. ماذا سمعت؟ أقول: لم أفهم شيئاً! يقول: ستبدلين جلدك في جيلك القادم. ستصيرين حية.

أصير حية سوداء، ناعمة، تزحف على الأرض. أمي تلطم وجهها: يا ويلي، ضاعت البنت! أهمس: لا تخافي... أنا تحت اللحاف.

كان هناك

كان قصيراً، ممتلئاً بعيون خضراء، يتكئ على عصا غليظة من خشب السنديان الأخضر. العصا تتفرع منها أغصان عملاقة تظلل الأرض كلها. يحرك عصاه، فتتحرك السماء. أجلس على حافة صخرية عملاقة. يقول لي:

- كم عمرك؟

- أربعة عشر عاماً.

- أنت صغيرة.

- لست صغيرة. أنتَ كم عمرُكَ؟

- لا أملك عمراً. ليتني أملك عمرك فقط!

- أنت شاب.

- من قال لك؟

- عيناي قالتا لي.

- العيون خداعة.

- عيناي ليستا كذلك، وأنا في العشرين من عمري.

- عشرون سنة! منذ قليل قلت: أربع عشرة!

- قلت ذلك لأخدعك.

- لماذا تخدعينني؟

- حتى لا تغويني؟

- أنا لا أحب النساء.

- من لا يحب النساء؟

- أنا! هن أكثر الكائنات شراً، وأشر ما فيهن، أنه لا بد منهن.

أقف بفزع، ترتجف ركبتاي:

- أنت الإمام؟

- من يحلف بي بعد الآن، ستلعنه الأزمان.

يغرس عصاه في الأرض، ويتحول إلى نور، ثم يصعد النور شجرة السنديان. تلمُّ العصا نفسها، وتطوي أغصانها، تتحول إلى حقيبة. تطير الحقيبة بجناح واحد، وتختفي بين الغيوم. يظهر أبي فجأة ويزعق: أين كنت؟ الجميع يبحث عنك؟

- كنت مع الإمام علي.

- الإمام علي لا يظهر على النساء.

يقول أبي ويسحبني من أذني.

حكاية مملة

بشر من خطوط سوداء تمشي على الأرض. جول فيرن يمشي على عربة من درع سلحفاة، وعيون أسماك تصطف كأضواء. أصابع مربوطة بخيول ذات رؤوس بشرية، تصهل عارية، وتمتطيها نساء بشعور حمراء، وأثداء منهوشة.

سأروي لكم حكاية. أقول لقطيع الحمير الذين تجمعوا حولي، يتربعون بصمت، وتظهر أسنانهم البيضاء الكبيرة:

ـ كان ياما كان في قديم الزمان، رجل من ماء، وامرأة بثلاثة قلوب، وشعر أسود.

ينهق حمار ويقول:

ـ أنت غبية! المرأة بلا قلب.

ينهق أخر:

ـ اصمت...الرجال بلا قلوب.

أقول:

ـ حسناً...الرجل بلا قلب، وللمرأة أربعة قلوب: قلب لتحب فيه، وقلب لتكره به، وقلب لتبكي عليه، وقلب لتبكي منه.

أسمع همهمة حمار:

ـ حكاية مملة.

أصير خطاً مستقيماً يحمل في نهايته، شفتين رقيقتين، بلا عيون. لا أرى أمامي. أسمع نهيقاً يتعالى. أقول: انتهت الحكاية.

ـ بلا حبكة؟! يقول حمار، عيونه سوداء لامعة، ومرسومة بخطوط كحل.

ـ الحبكة تأتي بعد الماء.

أتساقط على شكل حبات من المطر. أنزل في أراض كثيرة. وفي كل حبة أرض أنزل فيها، أنبت بجديلتين وجسد نحيل. أنظر من حولي كنت حقلاً من نفسي، أتمعن في الوجوه التي تتفحصني بنفس الطريقة. تهب ريح عاتية وصفير حاد يقول: كان يا مكان..

يخرج الصوت عالياً، هادراً، يجعل السماء تتصدع وتبدو بين غيماتها، شقوق كحلية تنهمر منها، أمطار غزيرة من الأوراق.

ثم أموت بسلام

سلة من البنفسج ترتعش على صدر بناء.

البناء يمشي نحوي. أقف، ألعب بفستاني ذي الورود المخملية. أنطّ على حبل مع بنت الجيران. البناء يقترب، وتتساقط من حوله زهراتُ البنفسج. أهمس لبنت الجيران: أمي تقول إنّ الأبنية تبتلع الأطفال، إذا تأخروا باللعب.

ـ أنت بلا أم. أنت دمية من خشب، تعيشين عند النجار. صنعك النجار، وصنع أنفاً طويلاً لك.

ـ أريد العودة إلى سريري.

تضحك البنت، ثم تتركني وحيدة. الأبنية تمشي مع باقات بنفسج تزين صدورها. أركض باتجاه البحيرة، وأرمي نفسي من الجرف. أتهاوى:

ـ سنعرف الآن، إن كنتُ دمية من خشب.

اصطدم بالماء، وأطفو. أغمض عيني: لا بد أن أغرق.

أطفو ثانية. تسبح الأبنية الشاهقة قربي، وتنثر زهور البنفسج على سطح الماء. هذا بيتنا، وهذه جارتنا. اسمع صوت هدير مياه، فتخرج لعبة جميلة لراقصة باليه، ويخرج جندي بذراع واحدة، ورجل مقطوعة. أمد يدي وانتشلهما من المياه:

ـ لا تخافوا يا صغار. سنخرج من هنا قريباً. تبكي الدمى بصوت عالٍ.

التيار يجرفنا. تهمس راقصة باليه بصوت ناعم: سنغرق، وأنت ستغرقين معنا.

ـ مستحيل! أعرف كهفاً قرب البحيرة، اختبئ فيه مع أصدقائي. سنذهب إلى هناك، ونشعل ناراً، ونجفف أنفسنا، قبل أن تعرف أمي بما حصل.

يخرج صوت الجندي ببحة حزينة: مسكينة. سنحترق بعد قليل، أنت وأنا وحبيبتي الناعمة.

يقترب من راقصة الباليه، ويمسك بيدها، ثم يجرني من أنفي الذي يطول ويتحول إلى جذع شجرة. نقفز في الهواء، فنسقط قرب دائرة كبيرة من النار. أقول:

ـ لن أحترق. سأقول لأستاذ الرياضيات: إني أحب. وبعد ذلك، أستطيع الموت بسلام.

جسور ميريل ستريب

أقف وراء زجاج. المطر ينهمر بغزارة. أنا في فيلم مع ميريل ستريب، أراقب الشاحنة التي تقلها مع زوجها. الشاحنة الأخرى التي يجلس فيها "كلينت ايستوود" تتباطأ. أصابع ميريل على مقبض السيارة. أصرخ بها:

- افتحي الباب، هيا اخرجي.. افتحي الباب.

ميريل لا تصغي. تنظر بهلع إلى الشارع الممطر، تبكي، وتعض شفتيها بصمت. أضرب يدي على الزجاج، وأناديها:

- ميريل افتحي الباب...إنه ينتظرك.

يقترب رجل سمين مني، ويهزني: اخرجي من اللوكيشن يا بنت.

أخترق الزجاج مثل شبح وأهرب، يركض فزعاً. أطير، واستقر على الواجهة الزجاجية لسيارة ميريل. أضرب على زجاج السيارة. ميريل لا تنتبه إلى وجودي. تنظر في الفراغ، عيناها فزعتان. تتجاوز السيارة إشارة المرور، تمضي الشاحنة بعيداً. أقفز عن السيارة، أجلس في الشارع، وأجهش. يقترب حشد كبير من البشر، كومبارس من كافة الجنسيات. يقول أحدهم: أخرِجوا هذه المجنونة من هنا.

يحملونني على عدسة كاميرا كبيرة. أرمى مع العدسة، فوق جسور ماديسون. أتهاوى، وأتحول إلى ذرات من الغبار. ألمح وجه ميريل يعاتبني، لأن ذرات رمادها اختلطت مع رمادي.

الساعات تضحك

ساعة ضخمة تتمايل مثل ساعات دالي، لكنها تغرق في ماء ينبت منه عشب طويل ذو أوراق عريضة. أتأرجح بعقارب الساعة. أمسك بعقرب الدقائق، وأقفز إلى عقرب الثواني، ثم عقرب الساعات. أحمل بيدي مفتاحاً من فضة. مفتاح كبير، يتدلى منه جرس. الجرس يرن كلما قفزتُ. تهتز الساعة، وتتحول المياه إلى أمواج عاتية، فتغرق الساعة مثل سفينة في عمق المياه، ثم تطفو ثانية. تظهر ساعات صغيرة، يلحق بعضها بعضاً. أقول لها:

ـ لا أحب الساعات. سأحوّل ساعات العالم إلى أراجيح. لا أريد النظر إلى ساعة. على الزمن ألاّ يمر أمامي مباشرة.

تخرج ساعة تضع نظارة: يا فيلسوفة عصرها، انزلي من فوق وتعالي امشي بين الناس في الشارع.

ـ أحب البقاء وحدي، والنظر بين السطور، وتحويل الساعات إلى أراجيح، وأريد أن أتسلق شجرة لوز.

ـ لوز! تضحك الساعات

ـ حبيبي كان يسميني أمّ اللوز، ويقول إن رائحتي كرائحة اللوز.

تقع الساعات على قفاها من الضحك:

- الرجال لصوص الساعات.

تخرج ساعة وقور، ترتدي ملابس قاض: هيا قرري ما الذي عليك فعله. هل تريدين عيش الحياة أم الكتابة عنها؟

- الاثنين معاً.

أقفز من عقارب الساعة، فتتلقفني الساعات الصغيرة ذات الوجوه الواجمة. تخرج منها نخلات طويلات تحمل نفس وجهي، تتمايل، وتمد يداً وتقول: تعالي لنتناول فنجان قهوة. حبيبك يقول: أنت جميلة كنخلة. أجلس مع النخلات، وتميل الساعة حتى تتساوى مع الأرض، وتتحول إلى ممشى نسير عليه.

شلح زنبق على خشبة مسرح

صوت فيروز يخرج من شلال أزرق: شلحُ زنبق أنا.. اكسرني .. اكسرني

أخرج منكوشةً. شعري باقة زنبق، وجسدي جذع أخضر يقفز. أحاول الغناء مع الصوت، فلا أعثر على فمي.

أمشي إلى مسرح مظلم، في وسطه بقعة ضوء. تخرج زنابق تمشي وتتلوى، تقف بانتظام على المسرح.

كمنجات تطير في الهواء، تصدر أصواتاً مرسومة على شكل طرق ترابية معفرة بالغبار، ومحاطة على أطرافها بأنهار. الأنهار تخرج من الكمنجات العملاقة، وتسقي الزنابق. أمام المسرح، تجلس كلمات. الكلمات تتشكل بزنابق صغيرة، وتقول: نحن الأصل، منا خرجت. أختبئ وراء الكواليس، وقد تحولتُ إلى شلح زنبق مكسور. أراقب من فتحة صغيرة، الزنابق الراقصة.

على قبر كازانتزاكس

صليب خشبي يتوضع فوق أحجار بيضاء، على جزيرة محاطة بمياه.

أقف قرب قبر نيكوس كازنتزاكس. أحمل بعض حبات التراب، أقول للسيدة العجوز الواقفة تحت شجرة، وهي تحمل مظلة بيضاء:

ـ حبيبي كان يقول إني مثل نساء ماتيس. لذلك جعلني أعيش في جزيرة كريت.

تبكي السيدة، وتقترب مني: ماذا تحملين في يديك؟

ـ حبات من التراب.

ـ أي تراب؟

ـ من هناك، حيث ولدت. وهربت وجئت إلى هنا.

ـ هل تعرفين هذا الرجل الذي تنثرين على قبره ترابك؟

ـ أعرفه.

ـ كيف؟ أنت صغيرة على معرفته؟

ـ أنا في الثانية والعشرين، وكبيرة بما يكفي.

أجلس قرب الصليب، تخرج رفوف كتب من التراب، وتكبر الشجرة التي تظلل السيدة، وتتحول أغصانها إلى رفوف من الكتب. أفتح كتاباً، لا أسمع صوتاً، لكني أرى نفسي أقص عليها حكايته كلها.

تقول:

ـ أنت تملّين الرجال بسرعة.

ـ أريد فارساً. أهمس لها. أنزل عن الشجرة. أحفر حفرة بحجم جسدي. تهيل المرأة التراب على جسدي. أمد ذراعي، فتقف منتصبة من تحت التراب، اسمع صوتي:

ـ ثبّتي عليها قطعة أخرى، واتركيني لحلمي الأخير.

السيدة تفتح مظلتها ثانية، واسمع همسها، وأنا أغمض عينيّ على سواد مطلق:

ـ اذهبي إلى فارسك.

رجال حول البياض

فراغ أبيض.

رجال يطوفون حول البياض، ويلوون رؤوسهم. يحملون في أيديهم شموعاً.

أحمل في يدي صحناً من البخور، أراقبهم عن بعد. يتجردون من ثيابهم، ويطلبون مني الاقتراب. يقول أحدهم:

ـ عليك أن تستغني. القوة في الاستغناء. كلما كنتِ خفيفة، كنتِ أكثر ثقلاً.

ـ لا أفهم.

أجلس على الأرض، وأتابع حركاتهم المولوية.

ـ هل أنتَ فعلا السهروردي؟

يهربون مني، وتنبت لهم في أرجلهم خطافات تثبتهم، ويتحولون إلى تماثيل من الرخام. الأرض تصير ساحة للرقص الجليدي. أقف على أصابعي، اتزلج عارية، وأتكتك من البرد، أغمض عيني، لا يثقلني حتى دمي الذي يتطاير من جلدي ويتبخر. أعلو عن الأرض، أريد أن أهيم على وجهي.

أخبط على قدمي، فينكسر سطح الجليد، وينزلق جسدي في الماء البارد. أبدأ بالتجمد، وألمح نفسي قطعة جليد تعوم في قاع بارد.

حلم في حلم

وجهُ الكائن الأسود ذو العين الواحدة، يكبر. يداه تخرجان من رقبته، يمسك برقبتي، يخنقني. ذنبه يلتف حول جدران الغرفة.

أفكر في التغلب على الكائن. أدرك أني في كابوس، وأني قررت، قبل أن أضع رأسي على الوسادة، مقاومته!

أستطيع أن أكون أعلى من لاشعوري، أهمس لنفسي في المنام: أنا أرى مناماً، لقد خنقني مرات كثيرة، وهو ليس حقيقياً. والآن سأحرك يدي.

تتحرك يدي، أمسك برقبة الكائن، أضغط عليه.. كنت أعرف في المنام أني تجاوزت الثلاثين، والكائن يطاردني منذ العاشرة، ولم أتخلص منه. أمسك برقبته، أعصره أكثر. يتراجع.

أعبُّ نفساً عميقاً من الهواء.

السباحة نحو الأعلى

جرن حجري كبير يتأرجح في الفضاء. نساء عاريات يستحممن داخله. الجرن يتأرجح برياح عاتية، والنساء لا يلوين على شيء، وألمحهن يسكبن المياه على أجسادهن. المياه تخرج من جدران الجرن. الجرن كوكب متحرك. شعور النساء تطول كلما رششن عليها المياه. تلف النساء العاريات ذوات الأجساد الممتلئة شعورهن، ويصنعن منها سلالم ليصعدن نحو الأعلى. بعض النساء يستطعن الوصول إلى حافة الجرن بعد أن يبيضّ شعرهن من الفزع. امرأة واحدة، تقف على حافة الجرن، في مواجهة فضاء مفتوح. شعرها مربوط في قعر الجرن، تنظر إلى الأسفل، ثم تحدق في الجرن، تقول: هذه هي الحياة. البعض يبقى في الأسفل، أخرون يتهاوون في طريقهم إلى القمة. وأنا أصل إلى القمة، لكننا جميعاً سنسقط في الهاوية. ما الفرق؟

تصرخ النساء من الأسفل: هذا ليس كلامك. لا تنقلي عن الكتب، هيا قولي شيئاً آخر.

تبدأ النساء بشدها من الأسفل، لاستعادتها. تقفز عن الحافة وتحلق بذراعيها، يربطها شعرها، وتتأرجح على جدران الجرن. يمر جرن أصغر، تقف النساء فيه على الحافة عاريات، يضعن ربطات عنق ملونة،

ويرقصن التانغو. تصرخ واحدة: التانغو خليط من عدة رقصات، صنعها بريق الذهب وسحر الوثنية في أمريكا اللاتينية.

يختفي الكوكب كما ظهر، وتصرخ المرأة: دعوني.

النساء يبكينَ، ويطلبْنَ منها العودة. المرأة تلوي عنقها، وتبدأ بقضم شعرها ونتفه في الفضاء، حتى آخر شعرة. يتأرجح شعرها، وتعوم وحيدة، بعيداً عن الجرن، لكنها لا تسقط في الهاوية. كانت تسبح نحو الأعلى.

انزلق بين الحروف

نَصَبتْ عيناياَ له شَرَكاً في النّوم فعزّ تصيُّدهُ.

كنت أتأرجح داخل بيت الشعر. النون كبيرة، الصاد، التاء، كل كلمة بحجم بناء ضخم. أنزلق بين الحروف، أدخل النون، ألمعها، وأرتدي شورتاً بمربعات حمراء، أذكر أني كنت ألبسه في عمر خمس السنوات.

أحمل سطلاً صغيراً من الرمل. أنشره على جدران الحروف. أحب العيش في النوم. أقول للحروف التي تزقزق بالضحك، فترتج الدنيا من تحتي، أطلب منها عدم التحرك، وإلا سأسقط في الفراغ. تلتزم الصمت.

- اقتربي أكثر. سأقفز. أقول لكلمة "عيناياَ"

أحلق فوقها، تقول:

- النوم مزعج، إنه الموت. يختصر الحياة.

- الحلم جنون عقل واحد.

- ليس دائماً. تفح في أذني.

- سأنهي تنظيفك، وأهرب إلى سريري.

- أستطيع أن أصنع لك سريراً. تقول وهي تضحك.

- أريد سريراً بعيداً من هنا، سريراً يتوضع على عمود عال، يطل على الفراغ. سريراً من حجر وعليه شمائل قمح يابسة.

تضحك الأحرف فأرتج، وأكاد أهوي.
أسقطُ في يا ء "في" تسخر ضاحكة:
ـ أنت العامودية الجديدة؟

أولى درجات البؤس

زخات غزيرة من الأمطار.

الأمطار كانت أوراقاً تملأ الأرض بأكداس من المخطوطات الغريبة. الأنهار تتلون بلون الحبر. كتب مرصوفة في الشوارع، تنزلق باتجاه الأنهار. كل الشوارع تفور بالأوراق والكتب. الريح تعصف بها. غرفة وحيدة موصدة النوافذ، لا يوجد فيها باب. أقف على الطرف الأخر، أحاول تلمس طريقي، وألمُّ الأوراق. يأكلني شعور بالغيرة من شيء مجهول. غيرة تفتتني. أقول:

ـ أحسد من يعرف أكثر مني.

تتشكل الأوراق على هيئة جملة: المعرفة أولى درجات البؤس.

تتناثر الأوراق، وتعود كما كانت. أنا جائعة. أصرخ. يتشكل رجل يقف إلى يميني. الناس في كل مكان، أراهم، ولا يروني.

ـ لا أحب البشر.

أنظر إلى الطاولة الفارغة، وأمد يدي، فتظهر أطباق غريبة. أشتهي المانغا. يظهر شلال من المانغا، يقترب مني، ويدلق نفسه في فمي. أتلوث، وأهرب منه.

تتجمع الأوراق على هيئة مارد: أنت داخل مصباح علاء الدين، وكل أمانيك أوامر.

- أريد العودة بسفينة.

تظهر سفينة من الأوراق، أركب فيها، تمشي في بحر، سطحه أوراق مبلولة، والحبر يصنع عليه بقعاً عملاقة، والحروف تسبح فيه. أقترب من الشارع، ألمسه، يتفتت ورقه. ألمس جدار السفينة، تتمزق. إعصار يخرج من البحر، يرفعني نحو الأعلى، واختفي. اسمع صوت المارد:

- تعودين إلى مستقرك.

في غرفة حيدر

أجلس على الكرسي قبالة، المرآة التي دخلها "حيدر"
أنا في روايتي!
أتلفت حولي. كان المكان حقيقياً. حيدر يقف على النافذة، وخطوات متمهلة بطيئة أسمعها تصعد الدرج الخشبي، تظهر "دلا" باكية منكوشة الشعر، تقترب مني، تضرب المرآة وتنكسر، ثم أجد نفسي ممسكة بيد حيدر، اختبىء في الحرش و"دلا" تطاردني باكية:
- كان يجب أن تفعلي شيئاً ما.
أقول لحيدر، مذعورة:
- لم أقصد أذيتها. إنها تلاحقني في الحلم واليقظة.
يمسك حيدر غليونه، ينفث دخانه، ويتجاهلني، متأملاً نقطة فراغ.
أعود واختبئ من صراخها:
- لماذا جعلتني ألمسه بعد موته؟ كان بإمكانك إضافة مشهد واحد.
ترتجف وتقع على ركبتيها:
- مشهد واحد سيجعلني ألمسه، كما رغبت طُولَ حياتي.
أخاف وأهرب منها، بماذا أواجهها؟ الأحراش تتحول إلى غابة عملاقة.

"دلا" تلاحقني، فأصرخ بها:

- أنا من خلقتك، ارحلي.

تستمر في اللحاق بي. كانت كما كتبتها تماماً وخلقتها، أشبه بنصف مخلوق إنساني، وهي تركض. صارت قدماها ورجلاها تتحرك مثل حيوان متوحش. تقفز على الأربعة، تقترب مني، ألهث، وأسعل. أقف، فأجد نفسي في غرفة حيدر، وهو ممدّدٌ بلا حراك فوق الملاءات. تنقض علي، أصرخ:

- هل عرفتِ النهاية الآن؟

تهمس برقة:

- كان يكفي أن تجعليني أقبله مرة واحدة. مرة واحدة فقط، ومن دون علمه، كنت سأقبل بذلك. كان يمرض، ويغيب عن الوعي، فأسرق قبلة من شفتيه! مشهد جميل أليس كذلك؟ كان يكفي إضافة هذا المشهد. ماذا فعلتِ؟ جعلتني ألمسه بعد موته، لمسة واحدة، جعلتِني ألمس كلاسينه، وأموت من العذاب.

أحاول أن أشرح لها وجهة نظري، لا أستطيع الكلام. أختنق بكلمة بقيت معلقة في حلقي.

شيطانة عارية فوق غيمة

مجموعة من البشر يهربون من كتلة الغبار. البشر يعدون بالألاف. تتكشف كتلة الغبار عن أحصنة ورجال مسلحين، يحملون بنادقهم ويصرخون بوحشية.

أين أنا؟

كنت واحدة من الذين يركضون، أطفالاً ورجالاً ونساء مشعثي الشعر. وأنا هندية حمراء، تمسكني امرأة تصرخ بي بلغة غريبة، وتحملني في حضنها وتركض. الرجال والنساء يبدون من فوق غيمة أمتطيها، مثل فئران. البشر يقتربون من حافة وادٍ عميق. جبال شاهقة خضراء، ونهر كبير يخترق تلك الوديان. كنت قبل قليل معهم. لكني الآن، أقف فوق غيمة، وأحمل شكل شيطانة عارية، أقول:

. أحب الشياطين التي يخافها البشر، لكني تعبت من التحولات.

تقف الجموع البشرية ذات الأسمال الممزقة على حافة الهاوية، كتلة الغبار تقترب، ينقشع الغبار. الأحصنة تصهل، فتخرج منها نباتات صبار. أعود وأمسك بحضن أمي، وأبكي:

. سنموت. أعرف كيف سنموت.

تنظر أمي بخوف إليّ، وتنطق بلغة غريبة، لا أفهمها. لكني أعرف

أنها تطلب مني الثبات والقوة. تقترب الأحصنة، ويبدأ الحشد بالسقوط في الهاوية. البشر يتدافعون، وأحدهم يمسك بالحافة. الأجساد الأخرى تنزلق وراءه. الأطفال يتطايرون في الهواء، ثم يرتمون في الهاوية. أسمع صرخات وجع، والأحصنة تتقدم، تدوس من بقي واقفاً في مكانه. بطون نساء تُبقر، وجدائل شعر تلتف حول حراب بنادق. ما زلت ألتف حول حضن أمي، وأصرخ. يقترب حافر حصان، يطأ رأسَ أمي ذا البشرة المحروقة. أم هندية حمراء بعيون عسلية وغرة شقراء نحاسية. أقع أرضاً، ثم أهرب. الخيول تلاحقني، تهشني كذبابة نحو الهاوية. فجأة، يطير جاموس في الهواء، له أجنحة نسر، يحلق فوق الأحصنة، ويضربها بحوافره، تقتله طلقات البنادق، فيتهاوى في الوادي. أتمسك بجذع شجرة قرب الحافة. البشر فوقي يتساقطون كحبات مطر. أجسادهم تتفتت في الهواء. يندفع المزيد من الأجساد فوقي، أطير نحو الأعلى قليلاً، ثم أهوي، وألمح خيالات أحصنة تقف على حافة الهاوية تصهل، وترفع قوائمها في الهواء، عالياً.

هذيان

لوحة جدارية معلقة على حائط طيني. الحائط ينتصب وحيداً، في صحراء من حصاة ضخمة تتوضع فوق بعضها، مثل هضاب صغيرة. أقف أمام اللوحة المقسمة إلى عدة لوحات أصغر. الشمس حادة، وبالكاد أفتح عيني. أقول لنفسي: لو أن الشمس أقل حدة. تظهر مظلة بيضاء، تتقدم مني، تمس أصابعي، وتهمس: صرتِ لوحة لرينوار. ابتسم، وافتح عيني فأصير أمام عدد من لوحات داخل اللوحة.

على الزاوية اليمنى، كانت جدتي جالسة تدخن سيجارها، وتلوح لي وتغني لي بالفرنسية: فريرو جاكو فريرو جاكو دور مي فو. أقول:

ـ جدتي، أنا غبية في اللغات، ولا أجيد سوى الكتابة والمنامات، وابنتي ستهجرني.

تضحك ضحكتها الرقيعة المعروفة، وتنفث دخانها، ثم تتزحزح عن مكانها، فيظهر سرير زهري صغير، فيه طفلة ذات لون أصفر فاقع، تغني جدتي للطفلة: لا أحد يهجر هذا الملاك. أقول:

ـ الآن، عرفت لماذا أدخن مثل المجانين. أنت السبب!

تعود لضحكاتها الرقيعة. انتقل إلى الزاوية الأخرى، فأرى "تحية كاريوكا" ترقص وتضحك. أهز خصري، وأبكي، أقول:

- لقد أردت أن أرقص طول عمري.

يهتز بطن "تحية كاريكوكا" ، وتصفق جدتي: يا هيك النسوان يا بلا! تحت صورة كاريوكا، تبتسم الموناليزا، فأهمس:

- مللت ابتساماتك. كم أنت جامدة.

تذبّل عينيها، وتهمس: لا أعرف من أنا. صدقيني. أمدُّ يدي وأسرّح شعرها.

أسمع دوياً هائلاً، أتمعن في الزاوية السفلى للوحة الضخمة؛ يجلس كارل ماركس، ويده داخل سترته. أضحك وأقول له:

- أنت ونابليون تخبئان نفس اليد. ينظر إلي بصرامة، ثم يضحك:

- صحيح، ولكن لكلٍّ يده التي يفعل بها ما يشاء.

يخرج صوت فريد الأطرش. وفي الصورة المقابلة لكارل لماركس، كانت سامية جمال ترقص على أغنية "يا حليوة". أهز خصري معها وأغني: أنا وأنت ولا حد تالتنا. تغضب، وتقول: أفسدت علي الرقص. هيا اخرجي من هنا.

أخاف من صوتها الغاضب. تتابع الرقص. ماركس ينظر إليها بإعجاب، ولا يحرك يده من تحت سترته. الموناليزا تلتفت إليها. تحية كاريوكا تصفق، جدتي تضحك، وأنا أخبئ وجهي تحت المظلة البيضاء، وأنشج:

- أريد أن أرقص.

فوق الصليب

أسمع صوتي يقول من داخل خشب صليب:

ـ أحب الخاطئين من البشر، أكثرَ من الصالحين.

وجه امرأة بلا جسد، على أحد جانبي الصليب. وعلى الوجه الأخر، وجه حصان خشبي. تخرج من عيني الحصان، جيوش من الأقزام، يحملون جسد امرأة شقراء على رماحهم، ويصرخون: هوررررا.

الصليب يطير في الهواء، ويحمل في أطرافه، مدناً وقرى، وأشجار كينا ضخمة. الأقزام الذين يحملون المرأة، يتهاوون في الفضاء، بعد أن يجتازوا أطراف الصليب، ويقذفون برماحهم إلى الهواء، قبل أن يتحولوا إلى ذرات غبار. وراء الصليب، حصان خشبي بلا رأس، جناحاه من ريش طاووس، يلحق برأسه، وتخرج من رقبته، أمواج من البحر، تتساقط في الفضاء. منها ما يعلو فوق الغيوم، فيسقط مطر غزير، تتحول حباته عندما تصطدم بالصليب، إلى وجوه رجال بلحى طويلة وثياب بيضاء شفافة. يهمسون: استيقظي. لقد عدت إلينا أخيراً. هذا مكانك الحقيقي. عدت إلى قميصك الضائع. عودي إلينا.

يصرخ وجه المرأة المصلوب، ويتهاوى الصليب فوق جبال شاهقة تزدحم بقبب بيضاء. يفتح الوجه عينيه.

كانت تلك عينيّ!

مطر مسنن

مدينة دمشق، من أعلى قاسيون، تظللها غيمة رمادية. قاسيون يرتفع وينشق عن سفحه، ويترك مدينة دمشق وحيدة.

واد عميق وسحيق بين الجبل والسفح. المدينة تهتز تحت وابل من مطر ذهبي، تنبت له أسنان. كل حبة مطر فك مفترس، يصطدم بالأرض، ويبدأ بقضم كل شيء: الأشجار، البيوت، البشر، الشوارع. حتى اللافتات الإعلانية الضخمة، يأكلها المطر المفترس.

قاسيون يتباعد، ويعلو، تتبدد قمته في السماء، تخرج منه أضواء، كُتب عليها شعارات وطنية. تكبر الشعارات. المدينة تبدأ بالاختفاء، لا يبقى منها سوى واد محفور بالطين والقاذورات. الوادي هو بردى. يتدلى من الجبل، طريق يصل بين السماء والأرض، تنمو فوقه مدن غريبة، مدن من ضباب. أمشي في أول الطريق، غير بعيد عن دمشق. أقول لكائن غريب، يقف قربي، ويعطيني جواز سفر:

- سأموت هنا.

يضحك الكائن الضبابي، ويقول: هذا الطريق يأخذ إلى السماء السابعة.

أتلفت حولي، وأصعد إلى الطريق الذي كان منذ قليل، جبل قاسيون.

تماثيل تلوم بالوداع

الجحيم هم الآخرون.

صوت آخر يقول: الجحيم هو مواعيدنا الضائعة.

الصوتان يختلطان بنفس الجملتين. أشرب البيرة على شاطئ ليماسول، أحمل بيدي كتاباً، وأراقب رجلاً يضحك بغرابة. الأصوات تعلو في رأسي: الآخرون...مواعيدنا الضائعة.

الرجل الضاحك يقترب مني، ويتحدث بلغة يونانية. أمجّ سيجارتي، وأفهم أنه يريد سؤالي عن عنوان كتابي. أخبره باسم لا أفهمه. يجلس من دون إذن. تمر نساء عاريات.

يقول بالعربية: أنت من بلاد الواق الواق؟ يبدأ الجميع بالتوافد، يتحلقون حولي. انظر إلى شكلي، كنت سمكة بحراشف سوداء، تحتسي البيرة، وتبكي بعيون ذات أهداب طويلة شقراء. أقفز إلى البحر، خوفاً منهم، يلحقون بي. فجأة تظهر جزيرة كريت من البحر، وتبدأ أطرافها تمتد إلي حتى أصل إليها. أعود إلى ما كنت عليه، وأمشي على قدمين، وأنا ألوح بكأس البيرة المثلج في يدي. البشر على الضفة الأخرى يبدون مثل تماثيل حجرية يلوحون بمناديل بيضاء كتب عليها: الجحيم هو الآخرون. أقول:

- السفلة.. سرقوا أفكاري؟

- ليست أفكارك؛ هذا سارتر. يقول الصوت.

- يوماً ما، سأترك بلاد الإغريق هذه.

يخرج محاربون من الجزيرة، يمتطون الريح ويهتفون: يا خائنة الخبز والملح؟

شجرة لوز

أنا شجرة لوز، أمشي على إسفلت حار، تتصاعد منه الأبخرة. الشجرة مزدانة بزهر اللوز، تتناثر الأزهار منها، وتتساقط حولها مثل مطر. أمدُّ يدي، وأدردر شعري، فتتناثر الأزهار بغزارة أكبر. يمتلئ شارع الإسفلت بزهر اللوز، تتحرك ريح خفيفة، فتتصاعد الأزهار نحو السماء، وتتعلق بالهواء. تأتي أشجار عملاقة، أغصانها يابسة، وتضع على عيونها، نظارات سوداء، وتمشي بتثاقل. أخاف من مظهرها، وابتعد عن منتصف الطريق. تقف إلى جانبي، وتمدُّ أغصانها وتهز فروعي. ما الذي تفعلينه؟ تسأل.

ـ انتظرُ حبيبي. قال لي إنَّ رائحتي مثل رائحة اللوز.

تقهقه الأشجار: اللوزة المسكينة الساذجة، وتدور من حولي، وهي تصفق: يا حرام... يا حرام.

تمر سيارة حمراء مكشوفة، تقودها شجرة توت. تقترب السيارة مني، وتنزل منها شجرة التوت التي تنثر ثمرها على الطريق، فتدهسه الأشجار اليابسة بجذوعها، ويختلط لون اللوز الأبيض بلون التوت النبيذي. أنظر إلى الشارع الذي صار زَهْرِيَّ اللون، وأصرخ بالأشجار من حولي:

ـ لا تلوثوا المكان.. حبيبي يحب بياض اللوز.

تدور الأشجار من حولها، وتقول، وهي تصفق من حولي، وكأنني مجنونة: يا حرام... يا حرام.

أشرعة الصوت

سفينة ضخمة، تعج ببحارة متسخين، يجلسون في الطبقة السفلية. روائح لحم زنخة. لا ألمح نفسي وسط الأشياء المكومة والخردوات. يظهر بحار بثياب نظيفة، ويضع على رقبته وشاحاً مزيناً برسوم ذهبية، يحمل في يديه صندوقاً خشبياً، يضعه على الطاولة ثم ينصرف. تتقدم مخلوقات غريبة من الصندوق. مخلوقات ذات أشكال طولانية، وتمشي على رجل واحدة. تدخل الصندوق من ثقب مفتاحه، تختفي داخله، ثم تصدر أصواتاً مبحوحة. الصوت يخرج من الثقب، على شكل أشرعة بيضاء، سرعان ما تهرب من النافذة البحرية المطلة على المحيط. ألمح نفسي أخيراً: وجهي نفسه، لكن جسدي يحمل شكل فأرة بيضاء صغيرة. أقف على رجلين، فأصير أكثر قباحة. اقترب من الصندوق، وأحاول فتحه، فتعضني أسنان ناعمة من داخله. أسمع صوتاً يقول:

- ربما تُهْنَا يا سيدي. لا يوجد ذهب في نهاية العالم. هذه نهاية العالم، وسوف نسقط من أعلى البحار، و يأكلنا العدم.

صوت آخر:

- أنا واثق أني سأعود إلى الملكة، بكنوز سليمان.

اختبئ على طرف الصندوق. يد تحمل الصندوق، وترفعه. أصعد

السلم، وأصير على طاولة السيدين. أشم روائح عطره.. وأرى المكان لامعاً ونظيفاً. تبدأ المخلوقات الغريبة بالخروج، وتطير في الفضاء. تسحبني إحداها معها، ونبقى معلقتين في الفضاء. أقول لها: ألا يروننا؟ تقول إحدى المخلوقات: إنهم لا يرون. كيف؟ أستغرب، وتجيب: ألم تشاهدي فيلم " الآخرون" لنيكول كيدمان . شاهدته. قلت بخوف.

تشير المخلوقات إلى الرجلين، وتقول: هؤلاء هم الغرباء. اصمتي.

اختبئ خلفهم، لكنهم شفّافون فأرى كل شيء أمامي. أستطيع اختراقهم بسهولة، ودخول أحشائهم والخروج منها. بحار ينادي: سيدي إنها اليابسة.

يخرج الجميع. نلحق بهم. إنه كريستوف كولومبوس صاحب الصوت، ينظر بذهول إلى الأفق البعيد. تقول لي الكائنات:

ـ هذه نهاية التاريخ: نحن نرى دماء تراق، وستكون أولى النبوءات السوداء. هذه أرض الجنة، سينزلون إليها، باحثين عن الذهب. وإذا وجدوا الجنة، سوف يخرج المارد من القمقم. لذلك جئنا نمنعهم.

ـ أنتم؟ يضحكون صارخين: بل أنت.

ـ أنا؟ أصرخ مذعورة، واختبئ داخل ذنبي.

يقتربون مني، ويربتون على ظهري:

ـ أنت من ستنزلين إلى الأسفل، وتحدثين فجوة تُغرق هؤلاء الغرباء.

أنزل فوراً، إلى قعر السفينة، وأبدأ بقضم الخشب، مثل قطعة شوكولا. أقضم بسرعة هائلة، وتبدأ المياه بالتدفق. تصرخ المخلوقات الغريبة: هيا..هيا. تنفجر المياه من الفجوة، وتخترق السفينة. يظهر حوت كبير، يبتلع السفينة وما فيها. ندخل فم الحوت الواسع، أكون

وحيدة على السفينة. صوت بطن الحوت يقول: أهلا بك في حضرة يونس. أقول له:

- سأجلب فلفلاً حاراً، لتعطس فأخرج من جوفك.

يقهقه بطن الحوت، ويقول:

- كولومبوس لم يمت. أنت الغارقة الوحيدة. وحكايات السندباد كلها تلفيق بتلفيق. وهو لم يجعل الحوت يعطس في حياته!!

حوار

لقد عشنا قبل مائة سنة. كنا نمشي على جسر وحيد.

ـ وبعد ذلك؟

أتى طوفان عظيم، هدم الجسر، وغرقنا، حين تبادلنا قبلتنا الأولى.

ـ بعد ذلك؟

صوتان يتحاوران. لا ألمح سوى شاشة كمبيوتر:

ـ أحلَّ الله بعضنا لبعضنا الآخر، وخلع عنا قمصاننا إلى أبد الآبدين. وكنا منذورين، لعودتنا المحتومة.

ـ لكنكَ لم تكن غزالاً كما كنتُ. نحن النساء، يسخطنا الله إلى حيوانات.

ـ كنتُ ذلك العشب الذي مضغته، بعد أن خطوتِ أول خطوة، عندما سقطت من رحم أمك الغزالة الكبيرة.

ـ أنا أكلتكَ؟

ـ كان الخيار الوحيد، لأدخل فيك.

ـ أزعر!

ألمح أصابعي، تهرش رأسي.

أرى نفسي، أمام كمبيوتر محمول. وحبيبي واقف إلى جانبي:

ـ متى أتيت؟ أسأله.

ـ منذ زمن.

ـ كيف؟ أنت بعيد مثل مجرة أخرى.

ـ هل أنهيت الرواية؟

ـ أية رواية؟

ـ التي تكتبينها.

ـ حبيبي: هذه قصتنا.

ـ أنت مجنونة. لابد أنك كنت تحلمين. هذه حكايات أجدادك.

ـ خائن. كيف تنسى طعم قبلتنا الأولى!

حرف الألف

فراغ أسود.

امتطي حرف الألف مثل صهوة حصان، أغطيه بوشاح فضي، لأخفيه عن عيون الناس والحروف الأخرى.

الحروف تَطْلعُ من الفراغ، تَتَطلّع باستياء إلي، وتبدأ الوشوشات والهمزات واللمزات.

تقف الحروف الأخرى مستاءة:

- يا فاجرة! تعتلين حرفاً واقفاً.

أهز الحرف، وأطير معه في الفضاء. أضع على ركبتي، سائلاً لزجاً. تلمع ركبتي بنجوم. أتهاوى وأطير مع الحرف، بحركات بهلوانية، ثم أصرخ بالحروف:

- وسميت بالألف لأنها تؤالف الحروف كلها، وهي أكثر الحروف دخولاً في المنطق.

أتشبث بالألف. ارتعش.

غاليانو

الكسل هبة الآلهة.

لا بد أني ما زلت أقرأ.

الكسل رجفة الأرض من المتعة.

أسمع صدى الكلمات، أعر ف أني غفوت ودخلت المنام.

الجمل تتزاحم:

ـ أعشق ما يكتبه هذا الساحر.

أقول وأرفع رأسي، فأكتشف أني خارطة كلمات مبهمة، ليست كلمات متقاطعة. كانت الخارطة أكثر انسيابية، وتتلون الحروف بإضاءات خافتة تلاحقها مثل فراشة طائرة. يقف رجل فوق رأسي، ويهش النور عن الكلمات، ويحمل في يده، جواز سفر ذا لون برتقالي، وفي أذنه يضع قرطاً، لمنحوتة وثنية تشكل جسد امرأة سمينة، ثدياها يحتلان جسدها، وبطنها منفوخ كبالون. أتمعن في القرط: هذه الأم الأولى. من أنتَ ؟ أسأله. يرسم بأصابعه، حروفاً من طين تتشكل من أصابعه؛ حرف الغين، الألف، اللام، الياء، يصنعها بمهارة خزاف ماهر. يكمل، وهو يرمقني بابتسامة؛ الألف، النون. يقول: تحبين النون أعرف. أضحك. يتابع؛ الواو.

يقف قرب حروف اسمه التي صارت جداراً من طين. يظهر جاموس، يقفز على الجدار الطيني، يهشمه. يتأفف، ويهمس لي: إياك أن تفلت شخصياتك من عالمك، ينظر برفق إلي: أحياناً يكون من المفيد أن تفلت.

على ظهر جاموس يقفز " بوفالو بل" أشهر رعاة البقر، ورمز الغرب المنتصر. يقول وهو يطير على رقبة الجاموس، ويهدم أخر حروف الطين: **أطلقت ٤٢٨٠ طلقة في عام وقتلت ٤٢٨٠ جاموساً.**

ينظر إليّ ثم يتابع: رغم النساء الجميلات من حولي. ثم يرفع النقاب عن وجهي، يسحب منديلاً من كلمات، تحته كان وجهي فراغاً مطلقاً.

الهاوية

أنطُّ فوق حبل. الحبل معلق بطرف شجرة، وأقفز معه من الجهة الأخرى. تصرخ أمي: اطلعي عالبيت، الدنيا ليل.

أتابع القفز على الحبل. أمي تخاف الليل.

يتحول الحبل إلى شعرة دقيقة. ينفلت من يدي. تختفي الشجرة وحديقة بيتنا. الشعرة الدقيقة معلقة بين حافتي وادي حمم بركانية. أقف برؤوس أصابعي على الشعرة، أكاد أسقط، ارتجف. يظهر لي مخلوق ناري يقف أمامي، يمسك بشراً في يديه، ويشبه الشيطان الذي تحدثني عنه جدتي في الحكايات، يلقي بالناس في وادي الحمم. أسمع صراخهم، وهم يتهاوون. ينزلون في نهر النار، أرى هياكلهم العظميّة بعد أن انسلخ لحمهم، تعود للطيران في الهواء، فتعود أشكالهم إلى ما كانت عليه. ثم يمسكهم الكائن المخيف ذو العين الواحدة، ويلقي بهم ثانية، ويعودون من جديد، لتكتسي عظامهم، وتُسلخ. يقول الكائن ذو الوجه الناري:

- ستلاقين من ربك، العذاب الشديد. ارتجف، أقول:

- جدتي تقول إن الله يحبني. وهو يجلس فوق الغيوم، يباركني. من أنتَ؟

- أنا الله.

- أنت لست الله. أجيب بخوف.

كان الله يقتل البشر ويشويهم. أريد حكايات جدتي عن الله. أقول في سري.

يرتعد المكان ويصرخ: سمعتك يا كافرة. تنقطع الشعرة، وأتهاوى في نهر النار:

- توبة ألله لن أعيدها، لن أعيدها. إنها جدتي الكاذبة.

سرير الزهرة

أعيش في صحراء. أرضع شجرة صبار عملاقة، وأستلقي في باطن إحدى الأوراق. تمر قافلة من أشجار التين، تليها سحابة غبار تتكشف عن سَحَالٍ عملاقة، وأفاعٍ برؤوس عدة. ترفعني ورقة الصبار بعيداً عن الأرض. أضحك وأمدّ لساني للأفاعي. تقترب مني، وتحاول الوقوف على ذنبها لتطولني، ينخزها الصبار بشوكه. تهرب الأفاعي. يقشر الصبار ورقه، فيظهر حليب أبيض يتدفق. أشربه، وأقول:

ـ أنا بحاجة للنوم، ألفَ عام. أيقظيني بعد ألف عام.

تتفتح زهرة بيضاء في أعلى الصبار. أتسلق إليها. نهايتها غير واضحة، تخترق الغيوم. تحملني الوريقات الثخينة، درجة، درجة. أقول:

ـ أريد سريراً داخل الزهرة البيضاء، سريراً نحاسياً بملاءات زرقاء.

أنظر إلى الأسفل، كانت السحالي والأفاعي تبدو مثل نقاط سوداء. أتمدد على السرير. تنطبق وريقات الزهرة البيضاء. أتمتم، وأنا أغمض عيني:

ـ أخيراً، حصلت على سرير فوق عمود.

ريميدوس الجميلة

أمتطي صهوة حصان يرتفع نحو الأعلى، ثم يدور حول نفسه، ويدخل في أعماق الأرض التي تنفتح أمامه، وتشق نفسها طريقين. أغمض عيني، وأطوق رقبته. أسمع صوت تنفسه، أقول لنفسي: الحصان إنسان رفض السجود.

يتوقف الحصان عن الطيران باتجاه عمق الأرض. نصبر في ساحة غريبة. يقول:

- أنت في مملكة الظلمات.

- هل أنا ميتة؟

يصهل ويتركني، ويطير باتجاه الأعلى، مردداً:

- موتك ضياع شبابك.

أبدأ في تحديد موقعي، وسط كهف لا متناه، طبقاته رفوف من حجر، فوقها أشكال مخلوقات غريبة؛ رأس بومة على جسد أنثى، ثدي امرأة يتوسط تمساحاً بعيون وردية، بشر بأعضاء متراكمة عشوائياً، بعضها فوق بعض، وجه بعشرات العيون، جذع تتدلى منه أذرع مع سيقان، ثلاثة أنوف لامرأة تعطس طوال الوقت، أسألها:

- كيف سأعود؟

تجيبني بملل:

ـ سوف تتسلقين باطن الأرض كلها. فالحصان الذي جاء بك، قال إنك تحرشت به.

ـ تحرشت به! كاذب.

ـ يا صغيرتي: إياك أن تلمسي بيديك رقبة ذكر، حتى لو فكرت أنك تلامسين حجراً. إنه يبكي فوق، ويقول إنه واقع في غرامك.

أندهش وأعترض:

ـ تمسكت برقبته حتى لا أقع. يا للرجال وعقولهم السخيفة!

أسمعها تقول:

ـ حبيبك كان محقاً عندما قال إنّك ريمبدويوس في مائة عام من العزلة، تشكر بكل سذاجة، رجلاً يعرض أن يفرك ظهرها. وأنت تتمسكين برقبة الحصان بكل غفلة!

عرافة إيثاكا

عجوز تحمل كتاباً، تقترب مني، تنبثق طاولة قوائمها أقلام رصاص. أقول لنفسي: هل هذه أريشجيكال؟

تنظر في عيني ـ كانت جميلة تطلب مني الجلوس، أقول:

ـ هل أنت سيدة المكان؟

ـ أنا عرافة ايثاكا.

أفرح، وأتقدم منها وأعانقها. تضحك و تقول: اطلبي.

ـ ماذا أطلب!

ـ كنت تريدين شيئا ما، ألم تقولي لبلة أمس إنك لا توافقين على وجودك.

ـ نعم.

ـ إذن ماذا تريدين؟

ـ أريد أن أموت في سن الخامسة والأربعين.

ـ هل أنت واثقة؟

ـ كل الثقة. لم يستشرني أحد عندما جئت إلى الحياة، ولكنني أستطيع أن أنهيها عندما أريد.

تضحك العرافة، تقترب من الطاولة وتأخذ ريشة بيضاء:

- حسناً... سنكتب أنك تودين الموت في سن الخامسة والأربعين.

تفتح العرافة يديها على اتساعهما، فتخرج نار من جوف الأرض. تتمتم، ثم تلتفت إلي:

- لن يتحقق طلبك. ستموتين في وقت لن تعرفيه أبداً، عندما تريدين الحياة.

- انا متصالحة مع الموت.

- عودي إلى الحياة الآن. البؤساء هم من يتصالحون مع الموت.

- ليكن ما تريدين. لكنني أريد تابوتاً من خشب السنديان، وأن أدفن في هضبة مهجورة جرداء، وبلا شاهدة.

سباحة في الفراغ

سرب من الفراشات البرتقالية. فراشات صغيرة وكبيرة. ناعمة ومدورة. بكافة الأشكال لكنها تطير فوق مرج ذي لون أخضر مشع. على جوانبه تلتف أشجار حور، ذات أوراق ذهبية تلمع ببريق يميل إلى الحمرة، ترتجف ثم تتهادى باستسلام، وتسقط على الأرض، وتتحول إلى فراشات برتقالية أخرى، تسافر إلى الشمس. كل فراشة تحمل على جناحيها، حقيبة سفر صغيرة. حقائب السفر تشع بلون مضيء لإنارة درب السفر.

أقترب من سرب الفراشات. أكون فراشة قزمة. أرى جناحين ينبثقان من أضلعي، ويبرقان بلون أرجواني. أحمل حقيبة، وأطلب منهم انتظاري. تنبت للفراشات أرجل طويلة، مثل عيدان القصب، وتلتصق بالأرض. تمشي الفراشات على عيدان القصب، وتختفي الأجنحة. ثم ترتدي فساتينَ من الورق الأصفر. الورق يهترىء على أجسادها ويتحول إلى ذرات من الذهب الأصفر، تتناثر في الفضاء. كل نثارة ذهب تنفلق وتخرج منها شوارع عريضة، تتحول إلى مدن طائرة في الهواء.

كان بشر تلك المدن، يتهاوون في الفضاء ويزعقون، بينما المدن تتابع سباحتها في الفراغ.

حذاء الرقص

صندوق دمشقي قديم، مطعم بالصدف والنحاس. ينفتح غطاؤه ببطء. داخل الصندوق، أنهار وسيول من الأحذية الراقصة، ذات الأشرطة الحمراء. أحذية بكعوب عالية دقيقة، تعلوها الأشرطة السابحة في الصندوق. كل نهر من الأحذية، يتشكل بطريقة مختلفة. أقف على الحياد، أراقب حركة الأحذية، وأدندن بلحن لا أسمعه، لكن الأحذية ترقص. حذاء يصطدم بجدار الصندوق، فيتهاوى نحو الأسفل، ثم تتحول أشرطته إلى جناحين، فيعلو ويعود للرقص مع مجموع الأحذية. أمد يدي لأحصل على حذاء. تفلت مني كل الأشرطة. أسمع صوتاً يقول:

- إذا حصلت على حذاء الرقص هذا، فسيخرب حياتك. ولن يكون بإمكانك التوقف عن الرقص، حتى موتك. الحذاء سيرقص، وأنت ستصيرين هباء، بلا وجود.

- وليكن. أريد الحصول عليه، أحب الرقص.

أمسك بحذاء أحمر لامع. أضعه في قدمي، وأحكم رباط شرائطه بطريقة المثلثات، حتى تصل الشرائط ركبتي. عندما أنتهي من عقد الشريطة، يقفز الحذاء وأتحرك، يبدأ جسدي بتحولاته، يرتفع خصري، ويداي تلوحان في الهواء، وكأن أحداً يقوم بتشكيل حركتي. أطير، وأتناغم مع حركته. أخرج من الصندوق، يطير بي الحذاء بعيداً.

. أنا داخل تلك الحكاية.

أردد، وألمح مدناً تحتي، وجبالاً وأنهاراً وبحاراً. أشعر أن في جسدي، قوةً هائلة ستنفجر في أي لحظة إن توقفت عن الرقص. أرى جبالاً بيضاء، ثم فجأة تلوح الأرض من بعيد، كرةً تلعب.

أنظر بإمعان إليها. أخاف. لا يخرج صوتي من حلقي.

الصندوق يتحول إلى تابوت. الحذاء الأحمر معلق بهيكل عظمي يطرطق من شدة ريح تلعب في قعر الصندوق. الحذاء مربوط بعناية على العظام، وشريطته المربوطة بطريقة المثلثات، تصل حتى عظم الركبة.

قبلة

نجمة زرقاء عملاقة. أشعتها تتراقص بين الأزرق والأخضر.

أعوم مع حبيبي تحتها في فضاء الشعاع، معلقين ببعضنا في قبلة، لا ألم تشكيل جسدينا. ألم فقط الشفاه المتداخلة. خيوط الأشعة تجعلنا نعلو ونرتفع مثل ذراعيْ أرجوحة. الأرض تحتنا تتشقق بأخاديد عميقة. أصابعنا تظهر وتتشابك، عيوننا مغمضة مثل أجنة في رحم. أسمع صوته يقول: الكرزتان لي. تمطر النجمة بحبال من الكرز الأحمر. أرفع رأسي عالياً، لألتقط كرزة بشفتي، أحصل على واحدة. ينظر حبيبي بعتب، فألقمه الكرزة بشفتي. تقترب النجمة وتطبق علينا. نكاد نختفي تحتها. نحن عاريان تماماً. يقول لي:

ـ ادخلي من البوابة الثانية.

تنفلق النجمة، وتبدأ بالنوسان. نختفي في العتمة، ثم نظهر! نجمتين زرقاوين، تهربان من نجمة عملاقة تفقد نورها شيئاً فشيئاً.

عباد الشمس

أركب طربوشاً عملاقاً أحمر، شراشيبه سوداء. تتحول الشراشيب إلى أشرعة. الطربوش يتهادى على سطح بحر هادئ. هناك سلم من حبال، تصل قعر الطربوش بحوافه. أصعد السلم، وأتكئ على حافة حادة. أحمل في يدي زهور عباد الشمس، وإبرة وخيطاً من ألياف نباتية. أمسك بطرف الشراع الأسود، وأقول له:

ـ أحتاج إلى ثلاث زهرات من عباد الشمس. أريد أن أصنع ثوب سباحة.

أخيط صدري، وأقيسها عليه. ألبسها، فتلتصق بجلدي، ويتحول صدري إلى طين رطب. أبحث بين الأزهار الأخرى، عن زهرة كبيرة. أريد دائرة كبيرة، أقيس الزهرات وأضع كل واحدة بين فخذي. لم تعجبني أي من الزهرات. أدقق في الأفق البحري، أسمع صوتاً يقول: تحتاج لورقة عنب. صوت آخر: بل لورقة توت.

أقف على الحافة، وأقول:

ـ أريد زهرة عباد الشمس وإلا سأسبح عارية.

الصوت يقول: تحت الشمس؟

ـ الشمس تحرقني، أذوب وأختفي تحت أشعتها. سأسبح في فضة القمر، عندما تنامون.

الطربوش يهتز، وتهرب زهرات عباد الشمس من حضني، وتنتشر على سطح البحر، فأقفز في الهواء، وتبدأ الزهرات المحيطة بصدري، تكبر وتنمو حولها زهرات أخرى، حتى تغطي جسدي بالكامل، قبل أن يخبط بسطح البحر.

أقف على قدمي. كنت حقلاً من زهرات عباد الشمس، يمشي من غير هدى، فوق سطح البحر.

مفتاح العالم

صورة ضبابية لغلاف كتاب. الصورة تتضح أكثر. تقترب وكأن عدسة تقوم بتصوير الغلاف. يتضح اسم الكتاب. الكتاب لونه رمادي. الصورة في داخله تتحول إلى أضواء. تقترب العدسة أكثر. أقرأ الاسم: تاريخ القراءة. أردد في سري: أنا في منامي. أسمع صوتي يقول:

- أستطيع أن أشم الحب عن بعد ألف كيلو متر.

تنفتح صفحات الكتاب، وأرى صورة الامبرطورة كاترين في مخدعها. أجلس قربها، ولا أرى نفسي. أحاول التلصص على ما تقرأ، فلا أفلح. كانت الرؤية ضبابية، وهي بالكاد تجعلني انحشر قربها في مخدعها الملكي. هذه امبرطورة روسيا التي كانت تهوى القراءة إلى حد الهوس. أقترب منها فتلمحني، وتنتفض من الخوف. أقول:

- دليني على القديس أوغسطين.

تضحك، وتهشني بحركة من أصابعها، وتتابع القراءة. أهمس لها:

- أنا أشم الحب عن بعد ألف كيلو متر. لا ترد. لكن القديس أوغسطين، يمسك بيدي، ويقلب الصفحات. أركض في الصفحات، تحت الأسطر، وبين الحروف. أنا في مرج من الكلمات، تصادفني بعض الصور لأشهر قراء التاريخ، فأتسلى فيها، وأنزلق إلى أمكنتها ثم أخرج. كان

ما يزال يمسك بيدي، وأنا أردد العبارة نفسها عن رائحة الحب والشم. القراءة مفتاح العالم. أعيد على مسمعه، الجملة، يضحك ويقول:

- كلام كلاسيكي. هات كلاماً مبتكراً!

- الجديد أني أشم الحب، عن بعد ألف كيلو متر.

- إذاً، سأبتعد ألف كيلو متر.

نوّارة

ابنتي جالسة مع شخصيات غريبة، لكنها شخصيات أكتبها، أعرف أني كتبتها، ولا أجيد التعرف عليها. تبدو حقيقية لكن ملمسها ملمس ورقي. تتحدث معهم على طاولة، بصوت خافت، تنظر إلي بغضب، وتدير ظهرها. الطاولة خشبية ومستديرة، وابنتي تحمل ملاعق تخبط بها على الطاولة، وتردد:

- ماما الشريرة.. ماما الشريرة.

أهرع إليها، وأضمها. تقول:

- رأيتك في الحلم اثنتين: واحدة حلوة، والأخرى بشعة

- أنت تحلمين مثلي..عائلة مجانين!

- أنت شريرة. واليوم سأعقد حلفاً مع أولادك.

- لكن لا أولاد لي سواك!

تقوم وتصرخ:

- وهؤلاء؟ تشير إلى الشخصيات الصامتة.

أمد يدي إليها، فتتحول إلى يد ترتجف أمام نافذة ممطرة. أنا أشعر بالبرد.

- أريد أماً ناطقة. أنت خرساء. تقول بغضب.

أحاول التحدث معها. لا يخرج الكلام من حلقي. أشير إليها بحركات ما، لتفهم علي، وأحاول الخطو تجاهها. تقول:

ـ سأهجرك. فأنا أريد أن أتعلم الكلام.

وليمة للنمور

لون رمادي، تتداخل فيه أشعه ترابية اللون. مدينة مهجورة، وأبنية شاهقة، زجاج نوافذها مكسور. الأرض تشع بشرر يبدو مثل شرر أسلاك كهربائية يحتكُّ بعضها ببعض. صديقتي تمسك بيدي.

نحن خائفتان. لكن عينيها تشعان ببريق أخضر، تلتفت إلي وتقول: لماذا عيناك تشعان مثل أفلام الرعب؟

أضحك في سري وأهمس: بل أنت من تشع عيناها؟

الأسلاك المتشابكة تصير أكثر كثافة ونحن نتقدم. يتزايد احتكاكها فتطلق شرراً. رجال أنصاف بشرٍ وأنصاف آليين، يمشون على أرصفة تلمع بماء أسود. الأرض مثقوبة من كل جهاتها؛ الأرصفة، الإسفلت، الأبنية، كلها ثقوب تخرج منها سوائل سوداء، لها طعم الماء. الثقوب تصنع مظلات سوداء، وتغطي المدينة بلونها، لكن الأضواء الترابية تعكس لوناً قرمزياً. أقول لصديقتي:

ـ اللون البنفسجي لون رومانسي، لكني أفضل الأسود عليه.

في زاوية الشارع، نمورعملاقة، تأكل جثثاً بشرية. خلفها تقبع الضباع. الضباع تراقب حركة النمور. تنتظر حتى تنتهي من وليمتها، ثم تقترب وتأكل ما تبقى منها. نقفز فوق الثقوب. فجأة تنفتح الأرض عن

ثقب تحت قدمي صديقتي، فتتعلو مع الماء الأسود، ثم تحترق قبل أن تسقط على الأرض، وتتهافت النمور عليها. الضباع من بعيد، تراقب. أهرب. أسمع صوتاً:

- لماذا تهربين؟ في داخلنا حيوان، بعضنا يقبل بوجوده ويعيش على أساسه، وبعضنا يخاف منه. اهربي بسرعة، فأنت من الذين يخافون.

أركض. يقول الصوت:

- الحيوان داخلك، سيأكلك.

أتلمس جسدي، وأتأكد أني لم أزل بشرية. أركض بسرعة. الرجال أنصاف البشر، الهائمون، يلحقون بي. تنتبه النمور لوجودي، فتلحق بي، تتبعها الضباع. أركض وأتسلق الأسلاك الكهربائية. أمسك بطرفي سلك كهربائي، واشتعل بينهما. المدينة تضاء بنور اشتعالي. تتحول المدينة إلى كتلة من نور.

صباح جميل على أرصفة المدينة ذاتها. زحام سيارات، وبشر مسرعون لأعمالهم، وفي وسط السماء، لم أزل معلقة، أحترق، وأشتعل بنور متوهج، يصير شمساً حارقة.

الأقلام

درج خشبي طويل. الدرج يلمع، وهو مزين بتماثيل عاجية على جوانبه. أرى صورتي على الخشب، فلا أعرف أين ضاع وجهي! على الدرج سجادة حمراء، ذات وبر طويل. تصير السجادة مثل حقل من القمح الأحمر. أرتدي ثوباً أزرق، بلا أكمام، وينسدل وراثي، ويجر خلفه الكثير من الكائنات الحية الصغيرة، التي لم أتيقنها جيداً، لكنها تخرج وتدخل من تحت ذيل الفستان، مثل قطط ناعمة. أضع قدمي الحافية على أول درجة، ولا ألمح أصابع قدمي. كانت هناك عشرة أقلام رصاص، تتوضع على ساقي. الأصابع الأقلام تحدد نقاطاً في كل خطوة تخطوها فوق سجادة العشب، ثم أرى كلمات بدأت تتكون في كل درجة أصعدها. التفت إلى الأسفل، وأقرأ ما كتبته، لم استطع، لكني فهمت أنه كلام بذيء. أتمعن في الكلمات:

ـ لابد أن الماركيز دو ساد مرَّ من هنا.

تتمايل الأعشاب تحت الأقلام، وتمحو بعض الكلمات. أهرب من الكلمات، وأنظر إلى نهاية الدرج، فلا ألمح نهايته، لكن النقطة البعيدة التي ينتهي عندها، تكون بداية غيمة كبيرة، على شكل باب مزخرف بالكلمات.

أطلع الدرج. يتمزق فستاني، وتتحول المزق إلى أشكال تتكون على هيئة حروف عملاقة، وتسبقني في صعودي. يظهر رجل ذو شعر أبيض. يجلس على إحدى الدرجات، يجرح أصابعه ويكتب بدمه على ورقٍ أصفر مهترئ. يمسك بفستاني ويسحبه، أصير عارية، واركض هاربة. يضحك، ويقول:

ـ أنت في الفيلم.

ـ لابد أنه الماركيز دو ساد. أردد بخفوت. أركض وأخفي عريي. أسمع ضحكته وصوته:

ـ لماذا تهربين؟ لم تعودي طفلة؟

أسمع صراخه من بعيد، ألتفت إليه. كان بعيداً مثل نهاية هاوية. أجلس لأرتاح.

لم تزل القمة بعيدة، أمسك بمبراة، وأبدأ ببري الأقلام. أبري إصبعاً إصبعاً، وأنثر نثار أقلام الرصاص على بياض جسدي. أنظر في الأقلام بفرح. كانت حادة وجاهزة.

لقاء

مقعد خشبي قديم في حديقة مهجورة. أرضها مغطاة بأرواق صفراء يابسة.

مقعد آخر في حديقة واسعة مزدانة بالأشجار وأزهار التوليب.

مقعد في غابة مليئة بنباتات عملاقة، وأشجار بأوراق عريضة ذات لون فوسفوري مشع.

مقاعد هائمة في فراغ الحلم، تتشكل مع أرضها، مثل سفن فضائية.

أجلس على المقعد.. خشبه بارد. أمد يدي، أتلمس التوليب. أقول:

ـ لماذا أنت وحيد. لا أحب المقاعد الوحيدة في الحدائق.

يقول:

ـ هناك رجل قال لحبيبته: في كل حديقة مدينة، سأصنع مقعداً لك.

ـ بعد ذلك؟

ـ هامت على وجهها تجوب حدائق العالم كله، تبحث عنه.

ـ هل مات؟

ـ لا. انتظرَ حتى صار القمر هلالاً، وصنعَ من ضفيرتها حبلاً، ثم علقها عليه. ومنذ ذلك اليوم ونحن نبحث عنها. ضاعت بين المجرات. وهي تبكيه.

نظرتُ إلى شعري، كان قصيراً، شعرت بارتياح، قلت للمقعد:
ـ لا ضفائر لي.
تتحول قوائمه الحديدية الصدئة إلى أذرع، وتحضنني بحنان. يقول:
ـ كانت لك ضفائر. أخيرا وجدتك؟

مدينة الحلم

صحراء بلا نهاية.

رتل من البشر يمتد من أول الصحراء إلى آخرها. الرجال يرتدون أثواباً بالية، ويغطون رؤوسهم بعمامات ممزقة. الأطفال يعتلون ظهور أمهاتهم، والنساء يخفين وجوههن بنقابات سوداء ، لكنهن يتركن نهودهن مشرعة لشمس الصحراء. النهود واقفة محروقة تحت الشمس. تظهر مدن فجأة، وسط الرمال، تظهر وتختفي، وتترك وراءها حفراً عميقة، تردمها الرمال بسرعة، وتأخذ في طريقها بعض بشر الرتل الطويل، تبلعهم، ويكمل الباقي سيرهم، دون أن يلتفتوا لرفاقهم. في نهاية الرتل، تظهر بوابة حجرية. البوابة عملاقة تصل السماء ولا تنتهي. مفتاحها من نهود النساء اللواتي يقمن بالاجتماع مع بعضهن، ويدفعن البوابة بصدورهن التي تصير حراباً، فتنفتح البوابة، وتبدو مدينة كبيرة، مبنية من جذوع أشجار يابسة. أبنية عالية من جذوع الأشجار، مربوطة ومتشابكة بضفائر نساء نحاسية. في وسط المدينة، تمثال كبير، لرجل عريض الجبهة، ذي رأس مربع، أنفه طويل. وفي أسفل التمثال يجلس رجل حزين. أظهر فجأة، ألمع نهديٌ مشرّعين للهواء، فأغطيهما بنقاب وجهي، وبشعري النحاسي الطويل. يقوم الرجل فزعاً ويبتعد عني وهو يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

أركض وراءه، وأناديه باسم: يوليسيس.

يجفل الرجل. ويقترب مني مذعوراً:

- من أنت؟ كيف عرفتِ هويتي؟ لستِ من هذا المكان.

- بل أنت الغريب.

يهرب مني، فأعطيه كتاباً وأقول له:

- مللت تهليل الناس، لجيمس جويس، لا أحب ما كتبه.

يغضب ويهرب مني. ألحق به، فيتكاثر الناس حولي، وهم يحملون هراوات غليظة، ويصرخون بكلمات غريبة لا أفهم معناها، لكنهم كانوا يشيرون إلى وجهي. أتوقف عن ملاحقة يوليسيس، وهو يضع أصابعه في أذنيه، ويصرخ:

- لن أسمعك، ولن تسحريني، لن أصغي إلى ندائك.

تقترب امرأة مني، وتقول:

- ضعي حجاب وجهك.

- لكن صدري عار.

- نهداك هما عيناك اللتان تقودان. رذيلة النساء في عيونهن!

أخيط الهواء

أجلس متربعة فوق سطح بحيرة ساكنة. أمسك بيدي إبرة متوسطة الحجم. أخيط في الهواء. أحرك الإبرة بطريقة دائرية، ثم أتوقف قليلاً، أقطع خيطاً وهمياً، وأتابع الخياطة. عقود من اللؤلؤ اللامع، تدور حول البحيرة، وتتمايل، ويصدر احتكاكها ببعضها، صوتاً جميلاً. أترنم بلحن، وأمر بيدي في الفراغ، فتنتشر فوق سطح البحيرة، دوائرَ تدل على سقوط شيء ما عليها، لكني لا أرى شيئاً. تصفّق حبات اللؤلؤ، وتهمس لي: نريد غطاء آخر.

أرفع يدي في الهواء، ثم أغطس في البحيرة، وأخرج. أجلس على الماء، أمد ذراعي، أحرك الفراغ، وأتابع الخياطة، وتعود حبال اللؤلؤ للرقص. تخرج من البحيرة، سمكة برتقالية صغيرة، وتقترب مني. كانت خائفة وتراقب حبال اللؤلؤ. تهمس: أنت تخيطين الهواء؟

صامتةً أجلس مثل بوذا، ولا أنظر إليها. شعري مجدول ومرفوع فوق رأسي، وركبتاي تتقاطعان مع الماء بشكل مستوٍ، وعيناي تتبعان حركة الإبرة فقط.

أسمعها، ولا ترمش عيناي. تقترب أكثر، وتصير في مساحة الماء المتجمع في حضني:

- اقفزي واهربي.

لا ألتفت إليها، وأتابع تحريك الإبرة في الهواء، بحركات دائرية طويلة. تخبط بذيلها، فينتشر رذاذ الماء على وجهي.

رمي الجمرات

ملاءة بيضاء تطير في الهواء. حشد كبير من الناس، وأنا في زاوية أرتجف، تحت شجرة بلوط كبيرة. الشجرة معلقة في صخرة عملاقة، عائمة في الفضاء، سماؤها الملاءة.

أرتجف، ومن جسدي تفور ينابيع من المياه. تقترب جارتنا وتقول لأمي: دثريها.. دثريها. أقول:

- لايجوز أن تقولي دثريها. **الدثار هو ما يلي الشعار. والشعار كل ما يلي الجسد من ثياب.** ألا ترين أني عارية!

أواصل الارتجاف. وأمي تلامس الملاءة بأصابعها. يقترب بشر كثيرون أعرفهم، يحملون جمرات طائرة في الهواء، ما إن تلامس أصابعهم حتى تشتعل. يرمونني بالجمرات، تلامس جسدي وتحرقني، وتنتشر من حولي الأبخرة عندما تلتقي النار بماء جسدي، فيطشّ صوت عال:

- ابصقوا في فمها، فتنسى حيواتها السابقة، وتصمت عن الكلام في جيلها.

أطبق فمي، وتختفي شفتاي. مكان الشفتين، يظهر زغب أشقر.

تقول أمي:

- الله يبعث لك قميصاً أحسن في الجيل التالي.

يخرج صوتي من بطني: شو يعني قميص ماما؟ ترد بهدوء:

- القميص هو الحياة التي تخلعينها على روحك في كل جيل لك.

أرى نفسي في شارع عريض، وعلى حوافه أشجار مزينة بخراف مذبوحة، لكنها تناديني بعيون فارغة. أخلع قميصي الذي ارتديه، كان لونه ليلكياً، أرميه على الأرض، ثم أتلقف قميصاً من الفراغ الذي تتطاير فيه قمصان غريبة الألوان والأشكال الجديدة. ألبسه. أنظر تحت قدمي، كنت أقف على مرآة عملاقة، فأرى قميصي الجديد، وأقول: يالعقل أمي المسكين، فألمح تنوراً تَخرجُ من فوهته، نيرانٌ وحممٌ. أقترب منه، وأخلع قميصي وأرميه، لأرتدي قميصاً طائراً. أمد يدي في التنور، ولا أحترق، أنزلق فيه، وأنا أبدل القمصان.

في قعر التنور، أرى سريري القديم، وأنا ما زلت أبدل قمصاني. أفرش عدداً كبيراً من القمصان من تحت جلدي، القمصان التي تطير وتتحول أكمامها إلى أجنحة طائرات.

صمت التابوت

لا أريد العيش بعد الآن.

أسمع صوتي في غابة سرو عملاقة. الغابة مطلة على طريق ضيق يلتف حولها، مثل سوار.

ممددة داخل تابوت زجاجي، بين أشجار السرو. أرى الكثير من الأصابع التي أعرفها، تمتد لتلمس زجاج التابوت. أسمع أصواتاً تهمس لي: عودي، فيخرج صوتي من بعيد: لِمَ لم أمت حتى الآن؟

أشعر بانزعاج لأني ما زلت أسمع أصواتاً حولي، رغم أني ميتة.

أريد الصمت المطلق.

تقترب الأيدي أكثر، وتتعالى الأصوات. التابوت يطير في الهواء، وأستعد للدخول في الصمت. يقف التابوت على نقطة فراغ، يرتكز عليها. أرى مرآة ضخمة أمامي، فأقول: هل أنا حلوة في موتي؟

أسمع ضحكات من حولي، فأعرف أنهم يقرؤون أفكاري، أشعر بخجل، وأحاول مسح العرق عن جبيني، فتصطدم كفي بسقف زجاجي، أنظر إلى السماء بعتب:

- ما هكذا كان اتفاقنا!. الموت هو الصمت. أريد أن أكون في الصمت المطلق.

صوت أمي يقول بشماتة: هذا عقاب من يقطع شرايينه قبل طلوع الفجر.

التحولات

أحمل وجه قرد.

أقبل بكل التحولات، إلا هذا! أسمع ضحكة: أنت واهمة.

أقفز على جذع شجرة، أرى حفرة كبيرة هائلة تتكوم فيها الجثث البشرية. إلى جانب الحفرة، رجال بخوذات زرقاء، يحملون رفوشاً، ويهيلون التراب على الجثث. تختفي الجثث تحت التراب، ثم يحملون جثثاً أخرى ويرمونها في نفس الحفرة، ويهيلون عليها التراب. صوت ابنتي يقول: ماما حطي أصابعك في أدنيك، الغنية اللي بتبكيكي طلعت عالتلفزيون.

صوت فيروز: ياقدس..ياقدس، فيضع القرد يديه في أذنيه

طائرات مروحية تحلق في المكان، فتتطاير الأشجار والكائنات في السماء، وتكون حفرة كبيرة، تهبط فيها الطائرات. أراقبها من جذع الشجرة. دموع غزيرة تتدفق من عيني القرد. أكتشف أن للقرود عيوناً جميلة ومُكَحلة. أقول: لا بأس في أن يكون الواحد قرداً. أهم ما في الكائن الحي، عيناه.

تخرج ابنتي بيدها شاشة تلفزيون، تلعب بها كدمية. تقول: ماما شيلي ايديك من ادنيك، خلصت الغنية اللي بتبكيكي!

يتحرك القرد ويضحك. أقفز إلى جذع آخر. رجال ينزلون من المروحيات، وينتشرون حول الحفرة الكبيرة، ثم يتقدمون. ألحق بهم عبر جذوع الأشجار. كانوا يدخلون قرية، بيوتُها الصغيرة من القش وحبال القنب. أمام كل بيت، نار صغيرة، وخلفه شجرة زيتون عملاقة. استغرب وجود شجر الزيتون في الأدغال. يتقدم رجل ويخلع خوذته، ثم يصيح بالناس، فيخرج الأطفال من البيوت. يقول ورجلاه معلّقتان في الهواء:

ـ ما أحلى هذه التشكيلات! كل الأفلام تصور الأمريكي منقذاً للعالم البائس!

أنظر إليه باستغراب:

ـ هل تكلم قرداً؟

يضحك:

ـ أعرفك! رغم لعبة تحولاتك.

يتحول إلى بومة، فأفرح، لأني أحب البوم. وحيد وحزين، وعيونه دافئة.

غرفة للقراءة

امرأة تقرأ كتاباً في غرفتها.

هذه، إذاً، غرفة فرجينيا وولف!

ترد بصوت مبحوح: أجل هذه غرفتي.

أحمل في يدي مصباحاً من الزيت، أقترب منها وأحمل شاشة كمبيوتر. تكبر الشاشة وتصبح بطولي، فتنظر فرجينيا بفضول إليها. أهزها من كتفيها، وأشير إلى الشاشة. كانت تظهر على شاشة الكمبيوتر، تغرق في نهر رمادي. يطفو وجهها على سطح الماء، ويعود للغرفة. تقول لي:

ـ كنت أعرف أنك أنت، أحبك.

تقترب مني وتقبلني. أقول:

ـ أردت دخول التجربة من أجل روايتي.

تنظر إلى الشاشة بفضول. أقول لها:

ـ هذه ميريل ستريب بطلة فيلم الساعات.

ـ ربما هي. أنا في حلم.

تضحك. يظهر وجهي يغرق في الماء على شاشة الكمبيوتر. تقول:

ـ تحبين الموت

ـ اشتهيه، لكن الأمهات لا يحق لهن القرار. أسوأ شيء ألاّ يكون لك الحق بقطع شرايينك، أو القفز من القمة نحو الهاوية.

تضحك بحزن وخفوت. وأسمع صهيلاً. كنا داخل غرفة في قطار، يتحول فجأة إلى عربة يجرها حصانان.

ـ في رأسي، ضجيج يذكرني بكِ. أنا على حافة الجنون.

تضحك وتمد أصابعها نحو خدي. أتابع:

ـ أنا بحاجة لارتجاج يقتلعني من المكان.

تنزع قبعتها، فتتطاير خصلات شعرها، وترمي القبعة على السهول المترامية. تقول

ـ لستُ سعيدة.

ـ عليكِ أن تعشقي رجلاً لدرجة اشتهائه، كل ثانية.

تقف، تخلق رجلاً من كلمات غامضة. يقبلها رجل الكلمات. تبدأ بخلع ثيابها فتبدو شاحبة ونحيلة. تقول:

ـ راقبينا فحسب.

طفلة

أربع دوائر زجاجية طائرة. مسطحة وشفافة.

واحدة بيضاء، زرقاء، خضراء، صفراء.

أنطُّ وكأني في بحيرة من الهواء. أقفز من دائرة إلى دائرة، وأضحك. أعيد القفز على رجل واحدة.

ـ كم أحب اللعب، كالأطفال!

أسمع صوتي، فأمسك حبلاً طويلاً بيدي. ألف به الدوائر. تتحول الدوائر إلى قطع حلوى، وترتفع في الفضاء. تتجمع في غمامة ضخمة تمطر قطعَ الشوكولا. فيتحول لون وجهي من الأشقر إلى البني، وأبدأ بلعق شفتي، وأنا ما زلت أقفز، وأجلس على إحدى الدوائر الزجاجية الشفافة، وأكتب بالسائل البني، على أرض الدائرة. أنظر إلى الكلمات، كنت أعرفها، هي مقطع من كتاب قرأته في يوم ما. أتمعن في جملة. هذه جملتي أنا: أريدكَ عندما يصير القمر بدراً.

أخاف. تطير تنورتي القصيرة، وأغني:

ـ أريد أرضاً مسطحة مفروشة بأوراق يابسة، في الخريف، حتى تكون أوراقاً برتقالية وصفراء، تخشخش. والأهم من ذلك، أن تكون السماء صافية، حتى أرى صراخ عينيك.

سيدة الرقص

كنت فراشة، أرتدي ثوباً طويلاً مزركشاً بألوان حمراء وزرقاء. أرقص وسط دائرة من النار، أتمتم:

- أخيراً أنصفتني لأرقص.

يضحك صوت مثل هدير، ويقول:

- تستطيعين الرقص بكل الحالات، حتى لو كنت حجراً أصم.

أغير دائرة النار، بعد أن أطير بجناحي، وما زلت أحرك جسدي، أقول وأحط في دائرة ثانية:

- لماذا لم أسمع الموسيقا بعد؟ هل سأرقص طول حياتي على إيقاع قلبي؟

تنسدل حولي خطوط لامعة، ومن أسفلها، تتدلى عناكب سوداء. ألمسها بأصابعي فتتحول إلى أضواء ملونة، عنكبوت أرجواني، وآخر أخضر، وأصفر، تصدر أضواء ملونة. تتراقص حولي، وتضيء النار ببقع غريبة من الألوان. جناحاي مرسومان بخطوط بنفسجية دقيقة. الرسوم على الجناحين، تحمل شكل حروف مزخرفة، وتشكل جملة:

الرقص جهة خامسة نسيها الجغرافيون، عندما حددوا جهات الأرض.

جملة أخرى، بجانب رسم لديكارت الذي يضع إصبعاً على رأسه:

أنا أرقص، إذاً أنا موجود.

جملة على الجناح الأخر:

كل حركة للجسد، هي فعل منعكس لعضلة القلب. الرقص هو التعبير الأول للكائن البشري.

أصفق بجناحي، تختفي الألوان والأضواء، أدخل كهفاً مظلماً، أرى على جدرانه، رسوماً لكائنات تسبح في الفضاء. كائنات تتحرك برقص مجنون. أقترب من الرسوم، فيقطر الكهف ماء، ويتمزق جناحاي، ويسيل لون بنفسجي في أخدود الكهف. أقف على جدار الرسوم، واحتمي به. رأيت هذا المكان من قبل. لا بد أني أحلم! فأصرخ:

ـ أنا سيدة الرقص.

تتحول الرسوم إلى كائنات تتحرك، ترقص وتطير. كان هناك رجل، ينظر إلى الكائنات ويصفق، ويقول:

ـ سأكتب مقالاً عن الرقص، أجملَ من مقال تحية كاربوكا.

أنظر إليه بوضوح. كان يحمل وجه ادوارد سعيد، كما ظهر في مراحل مرضه الأخيرة. ولجسمه شكل الكناري.

الفهرس

في قطار طاغور	7
انزلي عن حرف الألف	1
سيدة التفاصيل	3
حرف النون	5
سمكة بعيون مفتوحة على الموت	7
قاعة سينما رملية	9
درس تربية عسكرية	11
فرجينيا التي تغرق	13
قلبي المعلق	15
غيمة مثل مخدة رضيع	17
سكين	19
مثل عيون عمياء	21
فراشة بقرنيْ وعل	23
أرجحة فوق زعانف الدلافين	25
بلاد العجائب	27
مثلثات الغرام	29

ذنب حول الرقبة	41
الجميلة النائمة	43
رأس ميدوزا	45
أجنحة للطيران	47
تفاحة حواء	49
سهول الرواية	51
عباد الشمس	53
كان يضحك ويرمي الكتب	55
غابة من رمال	57
نحو قعر العالم	59
السماء تثلج رماناً	61
جبل الزنابق	63
أرجوحة	65
عجل أبيض كحمامة	67
وداعاً غوريا	69
حية سوداء	71
كان هناك	73
حكاية مملة	75
ثم أموت بسلام	77
جسور ميريل ستريب	79
الساعات تضحك	81
شلح زنبق على خشبة مسرح	83

على قبر كازانتزاكس	85
رجال حول البياض	87
حلم في حلم	89
السباحة نحو الأعلى	91
انزلق بين الحروف	93
أولى درجات البؤس	95
في غرفة حيدر	97
شيطانة عارية فوق غيمة	99
هذيان	101
فوق الصليب	103
مطر مسنن	105
تماثيل تلوح بالوداع	107
شجرة لوز	109
أشرعة الصوت	111
حوار	115
حرف الألف	117
غاليانو	119
الهاوية	121
سرير الزهرة	123
ريميدوس الجميلة	125
عرافة إيثاكا	127
سباحة في الفراغ	129

حذاء الرقص	131
قبلة	133
عباد الشمس	135
مفتاح العالم	137
نوارة	139
وليمة للنمور	141
الأقلام	143
لقاء	145
مدينة الحلم	147
أخيط الهواء	149
رمي الجمرات	151
صمت التابوت	153
التحولات	155
غرفة للقراءة	157
طفلة	159
سيدة الرقص	161

تسبح سمر يزبك في فضاءات الحلم، لا تركب عصا الساحرة، وإنّما الحروف والأشجار والمخلوقات الغريبة، أو تمتطي غيمةً عارية، وتزور عوالمَ خفيّة، في أعماق الذات والعالم.

أحلام ليست كوابيس، وإنّما رؤى واقتحامات مختلفة وحكايات.

كلّ شيء يمكن أن يحدث في الحلم، خارج كلّ القيود، وبعيدًا عن قانون الأواني المستطرقة.

دار الآداب

هاتف: ٨٦١٦٣٣/ ٠١
٧٩٥١٣٥/ ٠١
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-253-5

تصميم الغلاف زينة الخندقي
لوحة الغلاف: غوستاف كليمت